

الأدلة القواطع والبراهين

في

إبطال أصول الملحدين

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

حقَّقه، وعلَّقَ عليه

أبو عبد الرحمن

عراقي حكامد

الباحث في علوم الشريعة الإسلامية



مقدمة التحقيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ :

فالإلحاد: مَذْهَبٌ فَلَسَفِيٌّ يَقُومُ عَلَى فِكْرَةِ عَدَمِيَّةٍ، أَسَاسُهَا: إِنْكَارُ وُجُودِ اللَّهِ الْخَالِقِ ﷻ، فَيَدَّعِي الْمُلْحِدُونَ بَأْنَ الْكَوْنَ وَجِدَ بِلَا خَالِقٍ، وَأَنَّ الْمَادَّةَ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَهِيَ الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ، وَأَنَّ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ مِمَّا لَا يَقْبَلُهُ الْعِلْمُ، وَكَذَلِكَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِأَيَّةِ مَفَاهِيمِ أَخْلَاقِيَّةٍ، وَلَا بِقِيَمِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ.

وَلِذَا، فَإِنَّ التَّارِيخَ عِنْدَ الْمُلْحِدِينَ هُوَ صُورَةٌ لِلْجَرَائِمِ، وَالْحَمَاقَاتِ، وَخَبِيَّةِ الْأَمَلِ، وَالْإِنْسَانَ مُجَرَّدُ مَادَّةٍ تُطَبَّقُ عَلَيْهِ كَافَّةُ قَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ.

وغير ذلك من أفكار هذا المذهب الخبيث، والكفر الصريح الشنيع.

ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ دُولِ الْعَالَمِ الْغَرْبِيِّ وَالشَّرْقِيِّ تُعَانِي مِنْ نَزْعَةِ الْإِحَادِيَّةِ عَارِمَةٍ جَسَدَتْهَا الشُّيُوعِيَّةُ الْمُنْهَارَةُ، وَالْعِلْمَانِيَّةُ الْمُخَادِعَةُ.

وَنَظَرًا لِاخْتِلَاطِ الشُّعُوبِ الْمُسْلِمَةِ بِهَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ، وَخَاصَّةً بَعْدَ التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ الْهَائِلِ فِي وَسَائِلِ الْاتِّصَالَاتِ، الَّذِي جَعَلَ الْعَالَمَ كُلَّهُ كَقَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ - فَقَدْ تَأَثَّرَتْ بَعْضُ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِظَاهِرَةِ الْإِلْحَادِ، وَبَدَأَتْ تُطِلُّ بِرَأْسِهَا بَيْنَ شَبَابِ الْأُمَّةِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أُسْهِمَ فِي وَادِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ، وَتَبَيَّنَ عَوَارِهَا، مُحَاوِلًا رَدَّ الشَّبَابِ النَّائِيهِ الْمُعَذِّبِ إِلَى مَا خَلَقَهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ أَجْلِهِ، وَإِلَى الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي رَضِيَهُ جَلَّ وَعَلَا لِعِبَادِهِ - فَقَمْتُ بِتَحْقِيقِ هَذَا الْكِتَابِ الْقِيَمِ: «الْأَدِلَّةُ الْقَوَاطِعُ وَالْبَرَاهِينُ فِي إِبْطَالِ أَصُولِ الْمُلْحِدِينَ» لِلْعَلَّامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّنِي وَجَدْتُهُ مُؤَفِّيًا بِالْغَرَضِ، مَلِيًّا بِالذَّرْرِ؛ قَدْ قَضَى عَلَى الْإِلْحَادِ، وَنَسَفَهُ مِنْ

جَمِيعَ الوجوه، ولم يُبَقِّ لصاحب شُبْهَةٍ وَجْهًا فِي شُبْهَتِهِ؛ فَجَزَاهُ اللَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَ مِنْهَجِي فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْكِتَابِ النَّافِعِ الْمُبَارَكِ:

- 1- مُقَابَلَةُ الْكِتَابِ عَلَى أَفْضَلِ نُسخَتَيْنِ مَطْبُوعَتَيْنِ وَقَفْتُ عَلَيْهِمَا لِلْكِتَابِ، وَهُمَا نُسخةُ مُؤَسَّسَةِ الرِّسَالَةِ وَدَارِ الرُّشْدِ، وَنُسخةُ مَكْتَبَةِ الْمَعَارِفِ.
- 2- مُرَاجَعَةُ الْكِتَابِ مُرَاجَعَةً لُغَوِيَّةً دَقِيقَةً، وَذَلِكَ بِعَمَلِ فِقْرَاتٍ لَهُ، وَإِخْضَاعِهِ لِعَلَامَاتِ التَّرْقِيمِ، وَتَشْكِيلِ مَا يُشْكِلُ مِنْهُ، مَعَ زِيَادَةِ الْإِهْتِمَامِ بِتَشْكِيلِ مَتْنِ الْحَدِيثِ، وَتَمْيِيزِهِ بِخَطِّ سَمِيكٍ، ثُمَّ تَنْسِيقِ الْكِتَابِ تَنْسِيقًا يُسَهِّلُ الْإِسْتِفَادَةَ مِنْهُ، وَيُبْرِزُ مَا احْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ فَوَائِدَ وَذُرُرٍ وَمَسَائِلَ.
- 3- إِثْبَاتُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ بِالرَّسْمِ الْعُثْمَانِيِّ، وَعَزْوُهَا إِلَى مَوَاضِعِهَا فِي الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ.
- 4- تَخْرِيجُ الْأَحَادِيثِ مِنْ كُتُبِ السُّنَنِ ذَاتِ التَّرْقِيمَاتِ الْمَشْهُورَةِ وَالْمُعْتَمَدَةِ؛ كَتَرْقِيمِ مُحَمَّدٍ فَوَادٍ عَبْدِ الْبَاقِي رَحِمَهُ اللَّهُ، وَذَلِكَ بِذِكْرِ رَقْمِهِ.
- 5- عَزْوُ نَقُولَاتِهِ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، الَّذِي أَكْثَرَ مِنَ النِّقْلِ عَنْهُ - إِلَى مَصَادِرِهَا مِنْ كُتُبِهِ.
- 6- تَعْرِيفُ مُوجَزٍ لِلْأَعْلَامِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ.
- 7- إِضَافَةُ عُنُونَاتٍ لِلْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَذَلِكَ بَيْنَ مُعْقُوفَاتٍ؛ لِإِظْهَارِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْوُجُوهِ مِنْ مَعَانٍ، لِيَسَهِّلَ عَلَى الْقَارِئِ الْوُصُولَ إِلَى بُغْيَتِهِ.

8- إيراد بعض التَّعليقات والفوائد المُهمَّة اللازمة لإبراز المَعْنى المُراد، وتقريبه للفَهم.

9- عَمَلُ تَرْجَمَةٍ مُختصرة للعلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ.

واللهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ، وَهُوَ الْمُوفِّقُ وَالْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

أبو عبد الرحمن

عراقي حَامِد

الباحث في علوم الشريعة الإسلامية

ترجمة فضيلة الشيخ العلامة الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ

❁ اسمه ونسبه:

هو العَلَّامَةُ الرَّبَّانِيُّ الْوَرَعُ، الْفَقِيهُ، الْأُصُولِيُّ، الْمُفَسِّرُ، الْمُحَقِّقُ الْمُدَقِّقُ، حَامِلُ لَوَاءِ السُّنَّةِ، وَقَامَعَ الْبِدْعَةَ، الشَّيْخُ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَاصِرِ بْنِ حَمْدِ آلِ سَعْدِي.

❁ مولده:

وُلِدَ فِي عَنِيْزَةِ فِي الْقَصِيْمِ فِي الثَّانِي عَشَرَ مِنْ مُحَرَّمِ سَنَةِ أَلْفٍ وَثَلَاثِ مِئَةٍ وَسَبْعٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَتُوفِّيَتْ وَالِدَتُهُ سَنَةَ 1310 هـ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَتُوفِّيَ وَالِدُهُ سَنَةَ 1313 هـ، وَلَهُ سَبْعُ سِنِينَ.

❁ نشأته:

مَعَ أَنَّ الشَّيْخَ نَشَأَ يَتِيْمًا إِلَّا أَنَّهُ نَشَأَ نَشْأَةً صَالِحَةً، وَاشْتَهَرَ مِنْذُ حَدَاثَتِهِ بِفُطْنَتِهِ، وَذَكَائِهِ، وَرَغْبَتِهِ الشَّدِيدَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ؛ فَحَفِظَ الْقُرْآنَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَعُمُرُهُ أَحَدَ عَشَرَ سَنَةً، ثُمَّ اشْتَغَلَ بِالْعِلْمِ عَلَى يَدِ عُلَمَاءِ بَلَدِهِ، فَاجْتَهَدَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَجَدَّ فِيهِ، وَسَهَرَ اللَّيَالِي، وَوَاصَلَ الْأَيَّامَ حَتَّى نَالَ الْحِظَّ الْأَوْفَرَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ

مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ، وَلَمَّا بَلَغَ مِنَ الْعُمَرِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً جَلَسَ لِلتَّدْرِيسِ، فَكَانَ يَتَعَلَّمُ وَيُعَلِّمُ.

❁ مشايخه:

لَقَدْ تَلَقَّى الشَّيْخُ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ؛ بَعْضُهُمْ مِنْ عَنِيْزَةٍ، وَبَعْضُهُمْ مِنَ الْوَافِدِينَ إِلَيْهَا، وَبَعْضُهُمْ رَحَلَ إِلَيْهِمْ فِي بِلَادِهِمْ، وَنَذَكَرَ مِنْهُمْ:

1- الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْعَبْدُ الْكَرِيمُ الشُّبَلِ: قَرَأَ عَلَيْهِ فِي الْفِقْهِ، وَعِلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، وَغَيْرِهِمَا.

2- الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَائِضٍ.. وَهُمَا أَوَّلُ مَشَايِخِهِ.

3- الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْدٍ بْنِ جَاسِرٍ، فِي عَنِيْزَةٍ وَبَرِيدَةٍ.

4- الشَّيْخُ عَلِيُّ بْنُ نَاصِرٍ أَبُو وَادِي.

5- الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ مُحَمَّدُ الشَّنْقِيطِيِّ.

6- الشَّيْخُ صَالِحُ بْنُ عَثْمَانَ (قَاضِي عَنِيْزَةٍ)، قَرَأَ عَلَيْهِ فِي التَّوْحِيدِ وَالتَّفْسِيرِ وَالفقه؛ أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، وَعِلُومِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ أَكْثَرُ مَنْ قَرَأَ عَلَيْهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَا زَمَهُ مَلَازِمَةٌ تَامَّةٌ حَتَّى تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

7- الشَّيْخُ مُحَمَّدُ ابْنُ الشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمُحَمَّدُ الْمَانِعُ (مَدِيرُ الْمَعَارِفِ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ) فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ.

❁ مكانته العلميّة:

كَانَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَا مَعْرِفَةٍ فَائِقَةٍ بِالْفِقْهِ وَأَصُولِهِ، وَكَانَ أَكْبَرُ اشْتَغَالِهِ وَانْتِفَاعِهِ بِكُتُبِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، وَتَلْمِيزِهِ ابْنَ الْقَيِّمِ، وَحَصَلَ لَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ بِسَبَبِهِمَا فِي عِلْمِ الْأَصُولِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَلُغَتِهِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ.

وله اليد الطولى في علم التفسير، إذ قرأ عدة تفاسير، وبرع فيه، وألف تفسيراً جليلاً في عدة مجلدات، فسره بالبدية من غير أن يكون عنده وقت لتصنيف كتاب تفسير.

❁ تلاميذه:

تلمذ على الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ تلامذة كثر؛ نذكر من أشهرهم على سبيل المثال:

- 1- الشيخ العلامة مُحَمَّد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ، وهو الذي خلفه في التدريس والإفتاء في الجامع الكبير في عنيزة.
- 2- الشيخ العلامة عبد الله بن عبد العزيز عَقِيل رَحِمَهُ اللهُ، عضو هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية.
- 3- الشيخ العلامة عبد الله بن عبد الرحمن البسام رَحِمَهُ اللهُ، عضو هيئة التمييز بالمنطقة الغربية.
- 4- الشيخ محمد بن عثمان القاضي (ابن أستاذ الشيخ السعدي رحمهم الله).
- 5- الشيخ عبد العزيز بن محمد السلطان رَحِمَهُ اللهُ، المُدرِّس بمعهد إمام الدعوة بالرياض.
- 6- الشيخ عبد الله بن محمد المطرودي، ويحفظ «صحيح البخاري» بأسانيدِهِ.
- 7- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد البسام، وهو النائب عن شيخه في حياته في الإمامة والخطابة.

8- الشيخ إبراهيم محمد العمود، تقلّب في عدّة مناصب قضائيّة، آخرها قضاء المنطقة الشرقيّة.

9- الشيخ عبد الله الخضير، قاضي بلدة عفيف، ثمّ مدرّس بمعهد المدينة المنورة.

10- الشيخ عبد الرحمن محمد المقوش، قاضي الرياض، ثمّ أُحيل إلى التقاعد.

وهناك أعداد كثيرة درّست عليه، وانتفعت به ومن علمه ومنهجته وسلوكه في مجالاتٍ مختلفةٍ ومتعدّدة.

❁ ثناء العلماء على العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ:

مما يدلّ على مكانة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ما قيل عنه من قبل أهل العلم المعاصرين واللاحقين له، ممّن وقفوا على سيرته، ونهلوا من علمه، وقرؤوا مُصنّفاتِه، وتتبّعوا مؤلّفاتِه وكتبه، وسمعوا من فتواه أو خالطوه، ومن تلك الأقوال:

1- قال سَمَاحَةُ الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ عنه: «كان رَحِمَهُ اللهُ كثير الفقه والعناية بمعرفة الرّاجح من المسائل الخلافية بالدليل، وكان عظيم العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، وكان يُرجّح ما قام عليه الدليل.

وكان قليل الكلام إلّا فيما يترتب عليه فائدة، جالسته غير مرّة في مكّة والرياض، وكان كلامه قليلاً إلّا في مسائل العلم، وكان متواضعاً حسن الخلق، ومن قرأ كتبه عرّف فضله وعلمه وعنايته بالدليل، فرحمه الله رحمةً واسعة».

2- قال الشيخ العلامة مُحَمَّد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «إنّ الرّجل قلّ أن

يُوجد مثله في عَصْرِهِ في عِبَادَتِهِ وَعِلْمِهِ وَأَخْلَاقِهِ، حَيْثُ كَانَ يُعَامَلُ كُلًّا مِنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ بِحَسَبِ مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ، وَيَتَفَقَدُ الْفُقَرَاءُ، فَيُوصَلُ إِلَيْهِمْ مَا يَسُدُّ حَاجَتَهُمْ بِنَفْسِهِ، وَكَانَ صَبُورًا عَلَى مَا يَلُمُّ بِهِ مِنْ أَذَى النَّاسِ، وَكَانَ يُحِبُّ الْعُذْرَ مِمَّنْ حَصَلَتْ مِنْهُ هَفْوَةٌ.

3- قال الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ ابن مانع رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ: «كَانَ عَالَمَ عَصْرِنَا، وَعَلَّامَةُ مِصْرِنَا».

4- قال الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ عبد الرزَّاق العَفِيفِي رَحِمَهُ اللهُ: «فَمِنْ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ قَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَقِي الْحُكْمَ مِنْ مَنَبْعِهِ، وَيُسْنِدُهُ إِلَى أَصْلِهِ، وَيُتَّبِعُ الْقَوْلَ الْعَمَلُ، وَيَتَحَرَّى الصَّوَابَ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَيَذَرُ، وَإِنَّ مِنْ ذَلِكَ الْقَلِيلِ فِيمَا أَعْتَقَدُ: الشَّيْخُ الْجَلِيلُ عبد الرَّحْمَنِ بن ناصر السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ».

❁ مؤلفاته:

كَانَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ ذَا عُنَايَةٍ بِالْغَةِ بِالتَّأْلِيفِ، فَالَّفَ مَا يَرَبُو عَلَى السِّتِّينَ مُؤَلَّفًا فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، نَذَرَ مِنْهَا:

- 1- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المَنَّان.
- 2- تيسير اللطيف المَنَّان، خلاصة تفسير القرآن.
- 3- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن.
- 4- شرح عمدة الأحكام.
- 5- بهجة قلوب الأبرار، وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار.
- 6- أصول العقائد الدينية.
- 7- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان.

8- سُؤال وجَوَاب في أَهَمِّ المُهمَّات، (تَعْلِيمُ أَصُولِ الْإِيمَانِ، وَبَيَانُ مَوَانِعِ الْإِيمَانِ).

9- رِسَالَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَى اجْتِمَاعِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَمُّ التَّفَرُّقِ وَالْاِخْتِلَافِ.

10- الْأَدِلَّةُ الْقَوَاطِعُ وَالْبَرَاهِينُ فِي إِبْطَالِ أَصُولِ الْمُلْحِدِينَ. وَهُوَ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا، وَالَّذِي قَمْتُ بِتَحْقِيقِهِ.

11- التَّنْبِيهَاتُ اللَّطِيفَةُ فِيمَا اخْتَوَتْ عَلَيْهِ الْعَقِيدَةُ الْوَاسِطِيَّةُ مِنَ الْمَبَاحِثِ الْمَنِيفَةِ.

12- تَوْضِيحُ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ فِي الْإِنْتِصَارِ لِلْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ.

13- إِرْشَادُ أُولِي الْبَصَائِرِ وَالْأَلْبَابِ لِنَيْلِ الْفِقْهِ بِأَقْرَبِ الطَّرِيقِ، وَأَيْسَرِ الْأَسْبَابِ بِطَرِيقِ مُرْتَبِّ عَلَى السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ.

14- مَنَهِجُ السَّالِكِينَ، وَتَوْضِيحُ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ.

15- نُورُ الْبَصَائِرِ وَالْأَلْبَابِ فِي أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَالْحُقُوقِ وَالْآدَابِ.

16- الْفَوَاكِهُ الشَّهِيَّةُ فِي الْخُطْبِ الْمُنْبَرِيَّةِ.

28- الْفَتَاوَى السَّعْدِيَّةُ.

وفاته:

بعد عُمرٍ دَامَ تِسْعًا وَسِتِّينَ سَنَةً قَضَاهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْلِيفِ وَخِدْمَةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - وَافَاهُ أَجَلُهُ قُرْبَ طُلُوعِ الْفَجْرِ مِنْ لَيْلَةِ الْخَمِيسِ 23 جُمَادَى الْآخِرَةِ عام 1376 هـ فِي مَدِينَةِ عُنَيْزَةِ مِنْ بِلَادِ الْقَصِيمِ.

وَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ فِي حَشْدٍ عَظِيمٍ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ

في الجامع، وأمَّ النَّاسَ في الصَّلَاةِ أَحَدُ تَلامِيذِهِ وَنَائِبُهُ في إِمَامَةِ الجامع وَخَطَّابَتِهِ الشَّيْخُ عبد العزيز بن محمد بن سليمان البَّسَّام، وَدُفِنَ في مقبرة الشَّهوانية شمالي عُنيزة.

غَفَرَ اللهُ لِشَيْخِنَا عبد الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ، وَرَحِمَهُ، وَعَفَا عَنْهُ، وَأَدْخَلَهُ فِيسِيحَ جَنَّاتِهِ، وَأَلْحَقَهُ بِنَبِيِّهِ ﷺ الَّذِي عاشَ نَاشِرًا لِسُنَّتِهِ، مُدَافِعًا عَنْهَا.

❁ مصادر الترجمة:

- 1- «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين» للشيخ / محمد ابن عثمان القاضي.
- 2- «علماء نجد خلال ثمان قرون» للشيخ / عبد الله البسام.
- 3- «مشاهير علماء نجد وغيرهم» للشيخ / عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ.
- 4- «الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة»، رسالة ماجستير، إعداد: د/ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد.
- 5- أثر علامة القصيم / الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي على الحركة العلمية المعاصرة / عبد الله بن محمد بن أحمد الطيّار.
- 6- «حياة الشيخ عبد الرحمن السعدي في سطور» / أحمد القرعاوي.



[مقدمة المؤلف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نعمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا؛ من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

اللهم صل وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الله تعالى بعث رُسُلَهُ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ⁽¹⁾، وجعلهم الهداة والأئمة إلى كلِّ علم صحيح نافع، ودين صحيح، وإلى كلِّ صلاح وخير، وخصَّ محمدًا ﷺ بأن جعله خاتمهم وإمامهم⁽²⁾، وأنزل عليه الكتاب

(1) قال الله ﷻ: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: 213].

(2) قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ [الأحزاب: 40].

وأخرج مسلم (172) عن أبي هريرة رضي الله عنه، في قصة الإسراء واجتماع النبي ﷺ بالأنبياء في المسجد

والحكمة⁽¹⁾، فيهما الهدى والحق والنور، وفيهما العلوم النافعة، والحقائق الصادقة، والأخلاق الفاضلة.

والأعمال الصالحة والآداب العالية إليهما ينتهي كل علم وحق وكمال.

وقد وضح الله ورسوله فيهما المسائل والدلائل والحقائق اليقينية والبراهين القطعية؛ فمن تمسك بهما، واهتدى بهما سعى في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنهما، أو عارضهما ضل عن الهدى، وشقي، ونال الصفة الخاسرة⁽²⁾.

وأعظم الناس انحرافاً عنهما ملاحدة الفلاسفة، وزنادقة الدهريين، وهم أكبر أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وهم شرار الخلق الدعاة إلى الضلال والشقاء؛ فإنهم تصدوا لمحاربة الأديان كلها، وزين لهم الشيطان علومهم التي فرحوا بها، واحتفروا لأجلها ما جاءت به الرسل؛ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

=

الأقصى، وفيه، قال رسول الله ﷺ: «... فَحَانتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ».

(1) قال الله ﷻ: ﴿كَأَمْ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: 151].

وقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

[آل عمران: 164].

وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2].

(2) قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَهِيطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ

هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى ﴿١٦٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

الْقِسْمَةِ أَعْمَى ﴿١٦٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَهَا

وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٦٧﴾﴾

[طه: 123-127].

بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾
[غافر: 83].

وقد أَصْلُوا لِباطِلِهِمْ أَصُولًا يُقَلَّدُ فِيهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهِيَ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ،
يَكْفِي اللَّيْبُ مُجَرَّدَ تَصَوُّرِهَا عَنْ إِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ عَلَى نَقْضِهَا؛ لِكُونِهَا مُنَاقِضَةً
لِلْعَقْلِ وَالنَّقْلِ، وَلَكِنَّهُمْ زَخَرَفُوهَا وَرَوَّجُوهَا؛ فَانْخَدَعَ بِهَا أَكْثَرُ الْخَلْقِ.

أَعْظَمُهَا عِنْدَهُمْ أَصْلٌ خَبِيثٌ مَنقولٌ عَنْ مُعَلِّمِهِمُ الْأَوَّلِ «أَرِسْطُو» الْيُونَانِي
الْمَعْرُوفُ بِالْإِلْحَادِ، وَالْجَحْدِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْكُفْرِ بِهِ، وَبِكُتْبِهِ وَرُسُلِهِ ⁽¹⁾.

وَهَذَا الْأَصْلُ الَّذِي تَفَرَّعَ عَنْهُ ضَلَالُهُمْ: أَنَّهُ مَنْ أَرَادَ الشُّرُوعَ فِي الْمَعَارِفِ
الْإِلَهِيَّةِ فَلْيَمْنَحْ مِنْ قَلْبِهِ جَمِيعَ الْعُلُومِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ، وَلْيَسْعَ فِي إِزَالَتِهَا مِنْ قَلْبِهِ
بِحَسَبِ مَقْدُورِهِ، وَلْيَشْكُ فِي الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ لِيَكْتَفِ بِعَقْلِهِ وَخَيَالِهِ وَرَأْيِهِ.

وَكَمَّلُوا هَذَا الْأَصْلَ الْخَبِيثَ بِحَضْرِهِمُ لِلْمَعْلُومَاتِ بِالْمَحْسُوسَاتِ، وَمَا
سِوَى مَا أَدْرَكَهُ بِحَوَاسِّهِمْ نَفْوَهُ.

وهذا أَصْلٌ أَفْسَدَ عَلَيْهِمْ عُلُومَهُمْ، وَعُقُولَهُمْ، وَأَدْيَانَهُمْ.

وقد بَيَّنَّ النَّاسُ عَلَى اخْتِلَافٍ نَحْلَهُمْ بُطْلَانَ أَصُولِهِمْ، وَأَنَّ أَهْلَهَا قَدْ خَالَفُوا
جَمِيعَ الرُّسُلِ وَجَمِيعَ الْعُقَلَاءِ.

وَمِنْ أَبْلَغِ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا، وَأَبْطَلَهَا شَرْعًا وَعَقْلًا: شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ

(1) أَرِسْطُو (384 ق.م - 322 ق.م): فِيلَسُوفٌ يُونَانِيٌّ عُرِفَ بِاهْتِمَامِهِ بِالْمِيتَافِيزِيقَا، وَبِالْمَنْطِقِ.

وقد أَثَّرَ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمَدَارِسِ وَالنَّظَرِيَّاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ.

وُلِدَ فِي مَقْدُونِيَا، وَتَوَجَّهَ مِنْذُ سَنَةِ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ إِلَى أَثِينَا كَيْ يَتَلَمَّذَ عَلَى يَدِ أَفْلَاطُونِ، وَقَدْ كَانَ أَلْمَعَ
تِلَامِذَتَهُ.

تيمية⁽¹⁾؛ فإنه بين عدّة وجوه في فسَادِها وبُطْلَانِها، كُلُّ وَجْهٍ منها كافٍ في إِبْطَالِها؛ فكيف إذا اجْتَمَعَتْ.

فَنَنْقُلُ كَلَامَهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ نَتَمِّمُ ذَلِكَ بِمَا يُيسِّرُهُ اللهُ.

قال رَحِمَهُ اللهُ في «نقض التأسيس»⁽²⁾ لَمَّا ذَكَرَ عَنِ هَذَا الْمُعَلِّمِ الْمُلْحِدِ هَذَا الْأَصْلَ الْحَبِيثَ: «وَالْكَلَامَ عَلَى هَذَا مِنْ وَجْهِ:

❁ الوجه الأول: [كلامهم أشبه بكلام الجهلة والضلال]:

أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ هُوَ وَمَا ذُكِرَ مَعَهُ مِنَ الْحُجَّةِ أَشْبَهَ بِكَلَامِ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ، وَمَنْ لَا يَدْرِي مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ الْمَقَالِ، مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْبَيَانِ.

(1) هو شيخ الإسلام ابن تيمية، الإمام، المُحَدِّث، الحافظ، الناقد، والمُفَسِّرُ الْعَوَاصِ في معاني القرآن، المُبَرِّزُ في العلوم الثَّقَلِيَّةِ والعَقْلِيَّةِ على كبار المُتَخَصِّصِينَ فيها، والأمر بالمعروف النَّاهِي عن المُنْكَرِ، الرَّاهِد، العابد، المُجَاهِد، المُطَفِّرُ في مَيَادِينِ الْقِتَالِ، وفي مَيَادِينِ الدِّفَاعِ عَنِ حِيَاضِ الْإِسْلَامِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، سَيِّفُ اللهِ الْمَسْلُوقِ عَلَى الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُلْحِدِينَ، وعلى الْعُلَاةِ الْمُبْتَدِعِينَ: تَقِي الدِّينَ، أَبُو الْعَبَّاسِ، أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَضِرِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ تَيْمِيَّةَ، الْحَرَّانِي، نَزِيلُ دِمَشْقَ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَى مِثْلِهَا، وُلِدَ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ الْعَاشِرِ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ، بِحَرَّانَ سَنَةَ (611هـ)، وَتَوَفَّى وَهُوَ مَسْجُونٌ بِسِجْنِ الْقَلْعَةِ بِدِمَشْقَ، لَيْلَةَ الْإِثْنَيْنِ 20 مِنْ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ (728هـ)، وَهَبَّ كُلُّ أَهْلِ دِمَشْقَ وَمَنْ حَوْلَهَا لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَتَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الْمَصَادِرُ الَّتِي ذَكَرَتْ وَفَاتَهُ: أَنَّهُ حَضَرَ جَنَازَتَهُ جُمُهورٌ كَبِيرٌ يَفُوقُ الْوَصْفَ. رَحِمَهُ اللهُ، وَجَزَّاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

(2) هو المشهور بـ«بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية»، رد فيه على الفخر الرازي صاحب «تأسيس التقديس».

وكما يقول ابن القيم في «القصيدة النونية» (ص 230):

وَكَذَلِكَ التَّاسِيسُ أَصْبَحَ نَقْضُهُ
أَعْجُوبَةً لِلْعَالَمِ الرَّبَّانِي

وَهُوَ أَشْبَهُ بِكَلَامِ قُصَّاصِ الْجُهَّالِ، وَالْمُغَالِطِينَ، مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ
وَالْمُجَادِلِينَ بِالْحَقِّ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ⁽¹⁾ فِي بَشْرِ الْمَرِيسِيِّ⁽²⁾: «كَانَ صَاحِبَ

(1) الإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ / 780-855م): هو أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، الذُّهلي، فقيه ومُحدِّث، ورابع الأئمة الأربعة في الفقه، وصاحب المذهب الحنبلي المعروف. اشتهر بعلمه الغزير، وحفظه القوي، وكان معروفاً بالأخلاق الحسنة؛ كالصبر، والتواضع، والتسامح. قال عنه الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «خَرَجْتُ مِنْ بَغْدَادَ، وَمَا خَلَفْتُ بِهَا أَحَدًا أَوْرَعَ، وَلَا أَتْقَى، وَلَا أَفْقَه مِنْ أَحْمَدَ ابْنِ حَنْبَلٍ»، ويُعدُّ كتابه «المُسند» من أشهر كُتُب الحديث، وأوسعها.

(2) هو بشر بن غِيَاث بن أَبِي كَرِيمَةَ، عبد الرَّحْمَنِ الْمَرِيسِيِّ، العدوي بالولاء، فقيه مُعتزلي، عارف بالفلسفة. أدرك مجلس أَبِي حَنِيفَةَ، وأخذ تَبْدًا مِنْهُ، ثُمَّ لَازَمَ أَبَا يُوسُفَ، وأخذ الفقه عنه، وبرع حتى صارَ من أَخْصَصِ أَصْحَابِهِ، وكان ذا وَرَعٍ وَزُهْدٍ، غير أَنَّهُ رَغِبَ عَنْهُ النَّاسُ لِاشْتِهَارِهِ بِعِلْمِ الْكَلَامِ والفلسفة، وكان أبو يوسف يَذُمُّهُ، ويُعرض عنه.

وَالْمَرِيسِيُّ: نسبة إلى مَرِيس قرية بمصر.

وَحُكِيَ عَنْهُ أَقْوَالٌ شَنِيعَةٌ، وَمَذَاهِبٌ مُنْكَرَةٌ. وَإِلَيْهِ تُنسَبُ الطَّائِفَةُ مِنَ الْمُرْجئة التي يقال لها: الْمَرِيسِيَّة.

من تصانيفه: «التوحيد»، و«الإرجاء»، و«الرد على الخوارج»، و«المعرفة».

انظر «الفوائد البهية» (ص 54)، و«النجوم الزاهرة» (2/ 228)، و«معجم المؤلفين» (3/ 406)، و«الأعلام» (2/ 27).

وقال الذهبي: «بَشْرُ بْنُ غِيَاثٍ الْمَرِيسِيُّ مُبْتَدِعٌ ضَالٌّ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَوَى عَنْهُ، وَلَا كَرَامَةٌ.

تَفَقَّهَ عَلَى أَبِي يُوسُفَ؛ فَبَرَعَ، وَأَتَقَنَ عِلْمَ الْكَلَامِ، ثُمَّ جَرَّدَ الْقَوْلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَنَاطَرَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُدْرِكِ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، إِنَّمَا أَخَذَ مَقَالَتَهُ، وَاحْتَجَّ لَهَا، وَدَعَا إِلَيْهَا، وَسَمِعَ مِنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، وَغَيْرِهِ.

وَقَالَ أَبُو النَّضْرِ هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ: «كَانَ وَالِدُ بَشْرِ الْمَرِيسِيِّ يَهُودِيًّا قَصَابًا صَبَّاغًا فِي سَوِيقَةِ نَصْرَ بْنِ مَالِكٍ».

قلت: وقد كان بَشْرٌ أَخِذَ فِي دَوْلَةِ الرَّشِيدِ، وَأَوْدَى لِأَجْلِ مَقَالَتِهِ.

خُطِبَ، وَلَمْ يَكُنْ صَاحِبَ حُجْجٍ، بَلْ هَذَا الْكَلَامُ دُونَ كَلَامِ أَهْلِ الْخُطْبِ وَالْحُجْجِ»⁽¹⁾.

❁ الوجه الثاني: [في آثار الأنبياء والمرسلين غناء عن كلام هؤلاء]:

أَنْ يُقَالَ: أَلَمْ يَكُنْ فِي آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مَا يُسْتَعْنَى بِهِ فِي أَعْظَمِ الْمَطَالِبِ وَأَشْرَفِ الْمَعَارِفِ عَمَّا يَرُوْنَ عَنْ مُعَلِّمِ الْمُبَدِّلَةِ الصَّابِئِينَ الَّذِينَ انْتَقَلَوْا عَنِ الْحَنِيفِيَّةِ الثَّابِتَةِ بِالْعَقْلِ وَالذِّينِ، وَهُوَ رَأْسُ هَؤُلَاءِ الدَّهْرِيَّةِ⁽²⁾.

❁ الوجه الثالث: [أرسطو وذويه في العلم الإلهي أقل الناس نصيباً في

معرفة العلم الإلهي]:

إِنَّ جَمِيعَ الْعُقَلَاءِ الَّذِينَ خَبَرُوا كَلَامَ أَرِسْطُو وَذَوِيهِ فِي الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ أَقَلُّ النَّاسِ نَصِيبًا فِي مَعْرِفَةِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ، وَأَكْثَرُ اضْطِرَابًا وَضَلَالًا؛ فَإِنَّ كَلَامَهُ وَكَلَامَ ذَوِيهِ فِي الْحِسَابِ وَالْعَدَدِ وَنَحْوِهِ مِنَ الرِّيَاضِيَّاتِ مِثْلَ كَلَامِ بَقِيَّةِ

=

قال أحمد بن حنبل: «سمعت عبد الرحمن بن مهدي أيام صنيع بـ «بشر» ما صنيع يقول: مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكَلِّمْ مُوسَى يُسْتَتَابْ؛ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ».

وقال قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: «بِشْرِ الْمَرِيسِيِّ كَافِرٌ».

وقال أبو زُرْعَةَ الرَّازِي: «بِشْرِ الْمَرِيسِيِّ زَنْدِيقٌ».

وقال الْخَطِيبُ: «حُكِيَ عَنْهُ أَقْوَالُ شَنِيعَةٍ، أَسَاءَ أَهْلُ الْعِلْمِ قَوْلَهُمْ فِيهِ، وَكَفَرَهُ أَكْثَرُهُمْ لِأَجْلِهَا».

مات سنة ثمان عشرة ومئتين. أمه من «ميزان الاعتدال» (1/ 322، 323) بتصرف يسير واختصار.

(1) «سير أعلام النبلاء» (10/ 202).

(2) يقصد الشيخ رحمه الله: أرسطو.

النَّاسِ، وَالْعَلْطِ فِي ذَلِكَ قَلِيلٌ نَادِرٌ، وَكَلَامُهُمْ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ دُونَ ذَلِكَ، وَكَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ غَالِبُهُ حَقٌّ، وَفِيهِ بَاطِلٌ، وَأَمَّا كَلَامُهُمْ فِي الْإِلَهِيَّاتِ فَفِي غَايَةِ الْاضْطِرَابِ، وَمَعَ قَلَّتِهِ كَثِيرُ الصَّلَالِ عَظِيمِ الْمَشَقَّةِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَعْرِفُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ نَظَرٌ صَحِيحٌ فِي الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ.

فَلَا يُسْتَدَلُّ بِكَلَامِ هَؤُلَاءِ فِي الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ، وَحَالَهُمْ هَذِهِ الْحَالُ!
وقد اعترفَ أَصَاطِينُ الْفَلَسَفَةِ بِأَنَّ الْعِلْمَ الْإِلَهِيَّ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ فِيهِ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ فِيهِ بِالْأَوَّلَى وَالْأَخْلَقِ وَالْآخَرَى فِيهِ، فَإِذَا كَانُوا مُعْتَرِفِينَ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ، وَلَا يَقِينٌ فِي الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ؛ كَيْفَ يُسْتَدَلُّ بِكَلَامِهِمْ فِيهِ؟!

❁ الوجه الرابع: [فساد قوله: «فليستحدث لنفسه فطرة أخرى»؟]:

مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «فَلَيْسَتْحَدِثْ لِنَفْسِهِ فِطْرَةً أُخْرَى»؟
وَالْفِطْرَةُ: هِيَ الْخِلْقَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ عَلَيْهَا⁽¹⁾، أَتُرِيدُ أَنْ تُبَدِّلَ خِلْقَتَهُ، وَمَا فِيهَا مِنْ قُوَى الْإِذْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ؟!
فهذا غَيْرُ مَقْدُورٍ لِلْبَشَرِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا، أَمْ تُرِيدُ أَنْ يَتْرَكَ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، وَيَسْتَحْدِثَ لِنَفْسِهِ مَعَارِفَ تُخَالِفُ ذَلِكَ.
وهذا هو الذي يَصْلَحُ أَنْ تُرِيدَهُ؛ فهذا أَمْرٌ بِتَبْدِيلِ فِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَيْهَا، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْمُتَبَدِّعِينَ الْمُبَدِّلَةِ لِفِطْرَةِ اللَّهِ وَشِرْعَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «كُلُّ

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ أَلَدِيبُ الْفَاسِقِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) [الروم: 30].

مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ...»⁽¹⁾، فَأَهْلُ الْكِتَابِ الْمُنزَّلِ بَدَّلُوا وَحَرَفُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَا بَدَّلُوهُ وَحَرَفُوهُ⁽²⁾، وَهُمْ مَعَ الصَّابِئَةِ وَالْمُشْرِكِينَ الْقَائِمِينَ بِالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ بَدَّلُوا مِنْ فِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَيْهَا، وَغَيَّرُوا مِنْهَا مَا غَيَّرُوا.

ولهذا قيل: إِنَّ أَرَسْطُو هَذَا بَدَّلَ طَرِيقَةَ الصَّابِئَةِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ الَّذِينَ أَتْنَى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ⁽³⁾.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ عِبَادَهُ عَلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، فَصَلَّحَ الْعِبَادَ وَقَوَّاهُمْ بِالْفِطْرَةِ الْمُكْمَلَةِ بِالشَّرْعَةِ الْمُنزَّلَةِ.

(1) أخرجه البخاري (1385)، ومسلم (2658) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ فَأَبْوَاهُ يَهُودًا، أَوْ يُنَصْرَانَهُ، أَوْ يُمَجَّسَّانَهُ؛ كَمَثَلِ الْبَيْهَمَةِ تُنْتِجُ الْبَيْهَمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟». والْفِطْرَةُ: هِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ، وَطَرِيقَتُهُ. وَقَوْلُهُ: «يَهُودًا، أَوْ يُنَصْرَانَهُ، أَوْ يُمَجَّسَّانَهُ» أَي: يَجْعَلَانَهُ يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ مَجُوسِيًّا حَسَبَ مِلَّتِهِمَا بَتَرِغِيهِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ، أَوْ بِتَبَعِيَّتِهِ لِهَما. وَقَوْلُهُ: «تُنْتِجُ الْبَيْهَمَةَ» أَي: تَلِدُ الدَّابَّةَ كَامِلَةً. وَ«الْجَدْعَاءُ»: مَقْطُوعَةُ الْأُذُنِ، أَوِ الْأَنْفِ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ. أَي: إِنَّ النَّاسَ يَفْعَلُونَ بِهَا ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ بِالْمَوْلُودِ الَّذِي يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ.

(2) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ عَنْهُمْ: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانُوا مِنْهُمْ يُسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٧٥ [البقرة: 75].
وَقَالَ ﷻ: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئَالٍ سِنِينَ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: 46].
وَقَالَ جَل وَعَلَا: ﴿فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَّةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13].

وَقَالَ جَل جَلالَهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 41].
(3) يُشِيرُ ﷻ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٦٢ [البقرة: 62].

وهؤلاء بدلوا وغيروا فطرة الله وشرعته - خلقه وأمره - وأفسدوا اعتقادات الناس وإرادتهم - إدراكهم وحركاتهم، قولهم وعملهم - من هذا وهذا، كما بدل بنو إسرائيل القول الذي أمروا به، والعمل الذي أمروا به⁽¹⁾.

قال:

❀ الوجه الخامس: [وجوب التصديق بما أخبرت به الرسل ﷺ]:

«إِنَّ الرَّسُولَ إِذَا أَخْبَرَنَا بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَجَبَ عَلَيْنَا التَّصَدِّيقُ بِهِ، وَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ ثُبُوتَهُ بِعَقُولِنَا، وَمَنْ لَمْ يَقَرَّرْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَتَّى يَعْلَمَهُ بِعَقْلِهِ، فَقَدْ أَشْبَهَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» [الأنعام: 124].

وَمَنْ سَلَكَ هَذَا السَّبِيلَ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بِالرَّسُولِ، وَلَا مُتَّقٍ عَنْهُ الْأَخْبَارِ بِشَأْنِ الرَّبُوبِيَّةِ، وَلَا فَرَقَ عِنْدَهُ أَنْ يُخْبِرَ الرَّسُولُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ، فَإِنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ إِذَا لَمْ يَعْلَمَهُ بِعَقْلِهِ لَا يُصَدَّقُ بِهِ». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ⁽²⁾.

(1) قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا عَنكُمْ أَنْفُسَكُمْ يَتَذَكَّرُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَرَّيْدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: 59].

(2) انظر «العقيدة الأصفهانية» (ص 28)، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1415 هـ.

❁ الوجه السادس: [الوصية باستحداث فطرة أخرى مخالفة لما بعث الله

به رسله]:

أن يُقال: هذه الوصية مُخَالِفَةٌ لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، فَإِنَّهُ بَعَثَ رَسُولَهُ مُذَكِّرِينَ لِلْعِبَادِ مَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِفْرَارِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَوُجُوبِ شُكْرِ نِعَمِهِ، وَافْتِرَاضِ الْحُبِّ الْكَامِلِ وَالتَّعْظِيمِ التَّامِ لِلَّهِ الْمُتَفَضِّلِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَمُذَكِّرِينَ لَهُمْ بِالْأَمْرِ بِمَا فُطِرَتِ الْعُقُولُ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ؛ كَالصِّدْقِ، وَالْبِرِّ، وَالْإِحْسَانِ، وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَبِالنَّهْيِ عَمَّا فُطِرَتِ الْعُقُولُ عَلَى اسْتِقْبَاحِهِ مِنَ الْكُذْبِ، وَالظُّلْمِ، وَالْعُدْوَانِ، وَجَمِيعِ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ؛ فَكَيْفَ يُؤْمَرُ النَّاسُ أَنْ يَمْحُوا مِنْ قُلُوبِهِمْ وَفُطِرِهِمْ هَذِهِ الْأُمُورَ؟

وَهَلْ هَذَا إِلَّا نَهْيٌ عَنْ جَمِيعِ مَوَادِّ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ وَالصَّلَاحِ، وَأَمْرٌ بِكُلِّ مُنْكَرٍ وَفَحْشَاءٍ وَسُوءٍ وَشَرٍّ وَفَسَادٍ؟

وَفِي هَذَا مِنْ تَقْوِيضِ دَعَائِمِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَالِاسْتِبْدَالِ بِهَا أَصُولِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ وَالْفَوْضَى فِي الْعُلُومِ وَالْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ مَا لَا مُنْتَهَى لِشَرِّهِ وَضَرَرِهِ.

❁ الوجه السابع: [وصية أرسطو تتضمن محو العلوم والمعارف والإيمان]:

أن يُقال: هذه الوصية تُتَضَمَّنُ مَحْوَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَعَارِفِ النَّافِعَةِ وَالْإِيمَانَ الصَّحِيحَ، وَالِاسْتِبْدَالَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْوَاعِ الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْغَيِّ، وَرَفْضَ الْإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْأَصْلِ خُلِقَ ظُلُومًا جَهُولًا⁽¹⁾، لَيْسَ فِيهِ

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا

هُدًى، ولا عِلْمَ صَحِيحٍ، ولا بُرْهَانَ وَيَقِينٍ فِي الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ الْمَقْصُودَةِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الطَّرِيقِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهَا كُتُبَهُ.

وَلِهَذَا كَانَتِ النُّبُوَّةُ يَضْطَرُّ إِلَيْهَا الْمُكَلَّفُونَ أَعْظَمَ مِنْ ضَرُورَتِهِمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَمَا بِهِ قَوَامُ حَيَاتِهِمِ الْمَادِّيَّةِ؛ فَالْعِلْمُ وَالهُدَى الْإِجْمَالِي وَالتَّفْصِيلِي هُوَ

=

وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٦﴾ [الأحزاب: 72].

وَقَدْ سُئِلَ الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْأَمَانَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِمَاذَا كَانَ الْإِنْسَانُ ظَلُومًا جَهُولًا بِحَمْلِهِ الْأَمَانَةَ؟ وَمَا هُوَ مَعْنَى الْآيَةِ إِجْمَالًا؟

فَأَجَابَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْأَمَانَةُ: هِيَ تَحْمِيلُ الْمَسْئُولِيَّةِ فِي الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا، وَرَسُولُهُ، وَفِي اجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا وَرَسُولُهُ. هَذِهِ هِيَ الْأَمَانَةُ.

وَأَدَاوُهَا: أَنْ نَقُومَ بِذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَلَمَّا كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنَ الْعَقْلِ وَالْإِدْرَاكِ مِثْلُهَا لِلْإِنْسَانِ صَارَ الْمُتَحَمِّلُ لَهَا الْإِنْسَانُ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّفَكِيرِ وَالتَّمْيِيزِ، وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ بِعَقْلِهِ، وَبِالْوَحْيِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ.

وَعَلَى هَذَا؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِتَحْمِيلِهِ هَذِهِ الْأَمَانَةَ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا؛ لِجَهْلِهِ بِمَا يَتَرْتَبُ عَلَى هَذَا التَّحْمِيلِ، وَلِظُلْمِهِ نَفْسَهُ بِتَحْمِيلِهَا، وَهَذَا بِاعْتِبَارِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ الْإِنْسَانُ، أَمَّا إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا، فَإِنَّهُ يُزِيلُ عَنْ نَفْسِهِ هَذَا الْوَصْفَ؛ لِأَنَّهُ سَوْفَ يَهْتَدِي بِالْوَحْيِ؛ فَيَكُونُ عَالِمًا، وَسَوْفَ يَتَّقِي اللَّهَ ﷻ؛ فَيَكُونُ غَيْرَ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِ، فَالْإِنْسَانُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ.

عَلَى أَنْ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ: هُوَ الْكَافِرُ.

وَلَكِنْ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْعُمُومُ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ظَلُومٌ جَهُولٌ، وَلَوْ وُكِّلَ إِلَى نَفْسِهِ لَكَانَ ظَالِمًا جَاهِلًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنْ عَلَيْهِ بِالْهُدَى وَالتَّقَى؛ فَانْتَشَلْ نَفْسَهُ مِنْ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ الذَّمِيمَيْنِ:

الظُّلْمُ وَالْجَهْلُ، إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا. «فتاوى نور على الدرب» (2/5).

وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِطْرَةَ اللَّهِ هِيَ الظُّلْمُ وَالْجَهْلُ، وَإِنَّمَا هَذَانِ الْوَصْفَانِ مِنْ شَأْنِ الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي لِحَقَّتِ الْإِنْسَانَ بَعْدَ التَّكْلِيفِ (حَمْلِ الْأَمَانَةِ)، وَأَمَّا الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، فَالْمَقْصُودُ بِهَا: تَوْحِيدُ اللَّهِ ﷻ. فَهَذَا شَيْءٌ، وَذَاكَ شَيْءٌ، وَلَا تَعَارَضَ بَيْنَ هَذِهِ النُّصُوصِ. وَاللَّهُ الْمُؤَفَّقُ.

هُدَى الله، فَلَا يَلِيقُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يَتْرَكَ الْعِبَادَ مُهْمَلِينَ سُدَى بِلَا رِسَالَةٍ وَتَعْرِيفٍ لَهُمْ مَا يُصْلِحُهُمْ حَالًا وَمَالًا⁽¹⁾؛ فَأَرْسَلَ الرَّسُلَ، وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ حِكْمَةً مِنْهُ وَرَحْمَةً؛ ❁ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُلِ ❁ [النساء: 165]⁽²⁾، فَيَقُولُوا: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ⁽³⁾.

فَجَمِيعُ الْهُدَى وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْأَرْضِ، وَالْمَعَارِفِ النَّافِعَةِ، وَالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ: ❁ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ❁ [آل عمران: 164].

فَمَنْ تَمَسَّكَ بِوَصِيَّةِ هَذَا الْمُلْحِدِ الضَّالِّ⁽⁴⁾ فَقَدْ أَمَرَ بِمَحْوِ مَا جَاءَتْ بِهِ الْكِتَابُ، وَأُرْسِلَتْ بِهِ الرَّسُلُ، وَأَنْ يَسْتَبْدَلَ بِذَلِكَ وَسَاوِسَ الثُّفُوسِ، وَوَحْيِ الشَّيْطَانِ.

فَهَذِهِ الْوَصِيَّةُ الْبَاطِلَةُ مَقْصُودُهَا الْأَعْظَمُ: جَحْدُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُلُ، وَأَهْلُهَا أَحَقُّ النَّاسِ بِالْدُّخُولِ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ❁ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ❁ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ❁ [المؤمنون: 115، 116].

(2) وَالْآيَةُ بِتَمَامِهَا: قَالَ اللَّهُ ﷻ: ❁ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ❁ [النساء: 165].

(3) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ❁ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرَّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁ [المائدة: 19].

(4) يَقْصِدُ أَرْسَطُو الْفِيلَسُوفِ الَّذِي تَقَدَّمَ التَّعْرِيفُ بِهِ.

وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ ﴿١﴾
الآية [غافر: 70، 71].

﴿الوجه الثامن: [بطلان القول باستحداث وصية أخرى]:﴾

أَنْ يُقَالَ: هَذَا الْكَلَامُ بَاطِلٌ شَرْعًا وَعَقْلًا (٢).

أَمَّا الشَّرْعُ فَجَمِيعُ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَجَمِيعِ الرُّسُلِ جَاءَتْ بِتَقْرِيرِ مَا وَضَعَ اللَّهُ فِي فِطْرِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَكَمَالِهِ الْمُتَنَوِّعِ، وَصِدْقِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَتَقْرِيرِ الْحَقِّ، وَالْحَقَائِقِ النَّافِعَةِ فِي الْقُلُوبِ اعْتِقَادًا وَتَخَلُّقًا وَتَصَدِيقًا وَدَعْوَةً إِلَيْهَا وَهِدَايَةً لَهَا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ الْبَاطِلَةَ مُنَافِيَةٌ لِذَلِكَ غَايَةَ الْمُنَافَاةِ، مَادَّةً لِلجَهَالَاتِ الْبَسِيطَةِ وَالْمُرَكَّبَةِ، وَأَنْوَاعِ الصَّلَالَاتِ، وَدَاعِيَةٍ إِلَى الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَدَلَالَةُ الشَّرَائِعِ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ أَعْظَمُ وَأَوْضَحُ مِنْ أَنْ تُفْصَلَ، بَلْ هَذَا رُوحُ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، وَالشَّرَائِعِ النَّبَوِيَّةِ.

(١) والآيات بتمامها: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَاتُمْ فَتُشْرَكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر: 70-76].

(٢) يُشِيرُ إِلَى اسْتِحْدَاثِ فِطْرَةٍ أُخْرَى غَيْرِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا الْعَقْلُ فَإِنَّ أَهْلَ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَفْضَلَ الْمَغَانِمِ
وَالْمَكَاسِبِ مَا كَسَبَتْهُ الْقُلُوبُ، وَحَصَلَتْهُ مِنَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ، وَالْمَعَارِفِ
النَّافِعَةِ، وَالْإِيمَانِ الصَّادِقِ، وَالْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ الَّتِي مَنِ اتَّصَفَ بِهَا صَارَ مِنْ عَلَيْهِ
الْخَلْقِ، وَأَكْمَلِهِمْ، وَأَرْفَعِهِمْ دَرَجَةً وَمَقَامًا.

فَمَنْ أَوْصَى بِتَرْكِ ذَلِكَ، وَمَحَوَهُ مِنَ الْقُلُوبِ، وَالْحَثَّ عَلَى الشَّكِّ،
وَالْتَشْكِيكِ؛ فَقَدْ جَاءَ لِأَهْلِ الْعُقُولِ بِمَا لَا يَعْرِفُونَهُ، بَلْ يُنْكِرُونَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ،
وَيَرَوْنَهُ مِنْ فِطَائِعِ الْمُنْكَرَاتِ، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: 32]؟

وَمَاذَا بَعْدَ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ إِلَّا الْعَقَائِدُ الْبَاطِلَةُ؟
وَمَاذَا بَعْدَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ إِلَّا الْأَخْلَاقُ الرَّذِيلَةُ السَّافِلَةُ؟
وَمَاذَا بَعْدَ الرُّشْدِ إِلَّا الْغَيِّ وَالْفَسَادُ؟

❁ الوجه التاسع: [عودة هذا الأصل إلى محوما في القلوب من كل علم]:

أَنْ يُقَالَ: هَذَا الْأَصْلُ الْخَبِيثُ يَعُودُ إِلَى تَسْلُسُلِ مَحْوِ مَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ
كُلِّ عِلْمٍ صَحِيحٍ وَفَاسِدٍ، وَمِنْ كُلِّ مَعْرِفَةٍ حَاصِلَةٍ فِي الْقَلْبِ، فَهُوَ أَعْظَمُ مِعْوَلٍ
لِهَدْمِ الْعُلُومِ كُلِّهَا؛ لِأَنَّ لَازِمَ ذَلِكَ يُوجِبُ أَلَّا يَثْبُتَ فِي الْقُلُوبِ شَيْءٌ مِنَ الْعُلُومِ
الصَّحِيحَةِ، بَلْ لَا تَزَالُ الشُّكُوكُ وَالْمَكَابِرَاتُ تَنْفِي مَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ حَتَّى تَنْحَلَّ
الْعُلُومُ وَتَنْحَلَّ الْأَخْلَاقُ، وَيَتَدَرَّجُ بِذَلِكَ إِلَى مَذْهَبِ الْإِبَاحِيَّةِ وَالْإِنْطِلَاقِ فِي
الْفَوَاضِي، وَأَغْرَاضِ النُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ الضَّارَّةِ، وَلَا يَبْقَى دُونَ ذَلِكَ مَانِعٌ عِلْمِيٌّ،
وَلَا مَانِعٌ خُلُقِيٌّ، وَهَذَا أَعْظَمُ مِعْوَلٍ لِلشُّيُوعِيَّةِ الْمُفْسِدَةِ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا، وَبِهَذِهِ
الطَّرِيقَةِ فَشَا الْإِلْحَادُ.

الوجه العاشر: [أيهما أولى؟]:

أَنْ يُقَالَ عَلَى وَجْهِ التَّنْزُّلِ: أَيُّمَا أَوْلَى؟ مَحْوُ مَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ، وَمَا اتَّصَفَتْ بِهِ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ الصَّحِيحَةِ النَّاشِئَةِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُوجَّهُ صَاحِبُهُ -بِزَعْمِهِ- إِلَى طَلَبِ الْحَقَائِقِ مِنْ غَيْرِ أُسَاسٍ صَحِيحٍ يَبْنِي عَلَيْهِ، وَلَا مَعَارِفَ نَافِعَةٍ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا؟ وَقَدْ عَلِمَ مَا يَرِدُ عَلَى الْقُلُوبِ الْفَارِغَةِ السَّادِجَةِ الْخَالِيَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَسَاوِسِ وَالْخَيَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَأَنَّهَا عِنْدَ انْطِلَاقِهَا مِنَ الْحَقِّ الصَّحِيحِ اعْتِقَادًا وَتَخَلُّقًا تَأْتِي بِالْغُرَائِبِ الْمَزْعُوجَةِ وَالْخَيَالَاتِ الْمُضْحَكَةِ، أَي: هَذِهِ الْحَالَةُ الَّتِي لَا يَرْتَضِيهَا مَنْ لَهُ مُسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ.

وَحَالَةُ قَلْبٍ مَلَانٍ مِنَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ⁽¹⁾، وَالْمَعَارِفِ النَّافِعَةِ، وَالْإِيمَانِ الصَّادِقِ الْقَوِيِّ، الْمُسْتَمَدُّ مِنْ مَعِينِ الرِّسَالَةِ، وَمِنْ هَدْيِ اللَّهِ الَّذِي هَدَى بِهِ الْخَلْقَ، وَفِيهِ مِنَ الْفُرْقَانِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ مَا يُمَيِّزُ بِهِ الْحَقَائِقَ إِذَا وَجَّهَهُ صَاحِبُهُ إِلَى طَلَبِ الْحَقَائِقِ وَالْحَقِّ مِنْ أَبْوَابِهَا، وَاسْتِخْرَاجِ الْمَعَارِفِ مِنْ طُرُقِهَا، فَهَذَا الْقَلْبُ السَّلِيمُ عِنْدَهُ مِنَ الْيَقِينِ وَالنُّورِ مَا يَهْتَدِي بِهِ إِلَى الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ.

فَمَنْ سَوَّى بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ وَالْقَلْبَيْنِ فَلْيَبْلُغْ عَلَى ذَهَابِ عَقْلِهِ بَعْدَ ذَهَابِ دِينِهِ! فَالْعُلُومُ الَّتِي لَهَا أُسَاسٌ قَوِيٌّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَلَهَا بَرَاهِينُ قَطْعِيَّةٌ تَسْتَمَدُّ مِنْهَا وَتَهْتَدِي بِهَا، وَصَاحِبُهَا عِنْدَهُ مِنَ الْأُصُولِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، هِيَ الَّتِي يَعْتَبَرُهَا أُولُو الْأَلْبَابِ، وَيُنَافِسُونَ فِي تَحْصِيلِهَا، وَيَرَوْنَ إدْرَاكَهَا أَجَلَ نِعْمَةٍ

(1) أي: هذه الحالة مُقَابِلَةٌ لِلْحَالَةِ الْأُولَى، وَهِيَ حَالَةُ الْقَلْبِ الْخَالِي مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، الْمَذْكُورَةُ فِي الْفَقْرَةِ السَّابِقَةِ.

أَنعم الله بِها عليهم، وهؤلاء الْمُلْحِدُونَ يُوصُونَ بِتَرْكها وَمَحْوها من القُلُوب، حَتَّى يَلِجَ الباطلُ فيها من غير مُعارضٍ يُعارضُهُ من العلمِ واليقينِ والإيمانِ. فالعلومُ والمعارفُ والأدلةُ والبراهينُ مُحالٌ أن تكونَ صحيحةً نافعةً حَتَّى تَسْتَنيرَ بنورِ الوحيِ وبرهانِ الحَقِيقَةِ، وتَبْنِي عُلُومها وأَعْمالها على الإيمانِ.

❁ الوجه الحادي عشر: [معاندة الملحدين لله أعظم معاندة]:

إِنَّ هَؤُلاءِ يُعَانِدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَعْظَمَ مُعَانَدَةٍ؛ فَاللهُ يَقُولُ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: 13].

وفي الصَّحيح أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِمَنْ قَالَ لَهُ: قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»⁽¹⁾، أَي: عَلَى الْإِيمَانِ.

وهؤلاء الْمُلْحِدُونَ يَقُولُونَ: امْحُوا هَذِهِ الْأُصُولَ وَالْعَقَائِدَ -الَّتِي لَا أَصَحَّ مِنْهَا، وَلَا أَنْفَع، وَلَا يُسْعِدُ الْعَبْدَ غَيْرُهَا- مِنْ قُلُوبِكُمْ، وَشُكُّوا لِيَتَسَحَّدُوا عُلُومًا وَعَقَائِدَ جَدِيدَةً تَجِيشُ بِهَا الْقُلُوبُ الْمُنْحَرِفَةَ، وَالْآرَاءَ الْفَاسِدَةَ، وَالضَّمَائِرَ الَّتِي أَعْرَضَتْ عَنِ الْحَقِّ وَعَارَضَتْهُ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَى الْبَاطِلِ، وَهَذَا لَا رَيْبَ أَنَّهُ مُشَاقَّةٌ وَمُحَارَبَةٌ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ.

(1) أخرجه مسلم (38) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

❀ الوجه الثاني عشر: [محو العلوم الصحيحة من القلوب غير ممكن]:

إِنَّ مَحْوَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ وَالْعَقَائِدِ الْحَقَّةِ مِنَ الْقُلُوبِ، وَطَلَبُ الشَّكِّ فِيهَا مُحَالٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ، وَمَنْ حَاوَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مَكَابِرٌ، فَالْحَقَائِقُ الصَّحِيحَةُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْبَرَاهِينِ الْحَقَّةِ الْوَاضِحَةِ لَا يُمَكِّنُ إِزَالَتَهَا مِنَ الْقُلُوبِ بَوَاحٍ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ إِذَا تَمَّتْ مَعْرِفَتُهُ، احْتَلَّتْ الْقُلُوبَ، وَثَبَّتَ فِيهَا وَاسْتَقَرَّ، وَصَارَتْ لَهُ السَّيْطَرَةُ عَلَى كُلِّ بَاطِلٍ، وَزَهَقَ الْبَاطِلُ عِنْدَ مُقَابَلَتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: 14]، وَقَالَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: 102]، وَقَالَ عَنِ الْيَهُودِ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: 146]، وَقَالَ عَنِ الْكُفَّارِ الْمَشْرِكِينَ: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَا وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَاثَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

فَهَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ إِنَّمَا غَرَضُهُمُ الْوَحِيدُ صَدُّ النَّاسِ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَمَقَاوِمَةُ ذَلِكَ بِكُلِّ طَرِيقٍ، فَرَأَوْا هَذَا طَرِيقًا رَاجَ عَلَى الْأَعْمَارِ⁽¹⁾ وَضَعْفَاءِ الْبَصَائِرِ: ﴿وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: 46].

أَمَّا أَوْلُو الْبَصَائِرِ وَالْأَلْبَابِ فَإِنَّهُمْ يَسْعَوْنَ لِإِزَالَةِ مَا وَقَعَ وَيَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُعَارِضَةِ لِلْحَقِّ، فَإِنَّ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الْوَارِدَةَ عَلَى الْقُلُوبِ تُضْعِفُ عِلْمَهَا وَيَقِينَهَا وَإِيمَانَهَا.

(1) الْأَعْمَارُ: جَمْعُ الْغَمْرِ -بِسُكُونِ الْمِيمِ، وَضَمُّهَا- أَيُّ: الَّذِي لَمْ يُجَرَّبِ الْأُمُورَ. انظر «مختار الصحاح»، مادة (غمر).

ودَوَاء ذلك: أن يُقَابِلَ بِالْعِلْمِ الصَّحِيحِ والْبَرَاهِينِ الصَّادِقَةِ، فَإِنَّ الشُّكُوكَ لَا تُبَوِّتُ لَهَا عِنْدَ ذَلِكَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17].

وكذلك إِزَالَةُ مَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الشَّهَوَاتِ والأَغْرَاضِ الفَاسِدَةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا صَاحِبُهَا عَلَى الْحَقِّ، وَالتَّعَصُّبَ لِلْمَقَالَاتِ بِغَيْرِ مُسْتَنَدٍ صَحِيحٍ، فَدَوَاءُ ذَلِكَ بِتَوْجِيهِ الْقَلْبِ لِقَصْدِ الْحَقِّ الصَّرْفِ، وَالِإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَقُوَّةِ الرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى هَوَى النَّفْسِ.

فهَذَا هُوَ الْمَطْلَبُ الصَّحِيحُ لِكُلِّ مُوَفَّقٍ: أَنْ يَكُونَ فَطِنًا فِي إِدْرَاكِ الْحَقِّ، وَفِي نَفْيِ الشُّبُهَاتِ الْمُتَنَافِيَةِ لَهُ، وَأَنْ يَكُونَ حَسَنَ الْقَصْدِ فِي تَرْجِيحِ مَا يُرْجِّحُهُ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ مِنَ الْمَقَالَاتِ.

❁ الوجه الثالث عشر: [المقصود من هذا الأصل: الكفر والانحلال]:

إِنَّ الْمَقْصُودَ الْأَعْظَمَ مِنْ تَأْصِيلِ هَذَا الْأَصْلِ الْخَبِيثِ: الْكُفْرُ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَالْإِنْحِلَالُ عَنْهُ، وَإِلَّا فَأَهْلُهُ مِنْ أَكْذِبِ النَّاسِ، فَإِنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ غَايَةَ التَّمَسُّكِ بِمَا عَلَيْهِ أَيْمَنَتِهِمُ الْمَلْحَدُونَ، وَأَقْوَالَهُمْ وَعَقَائِدُهُمْ مُقَدِّمَةٌ عَنْدهُمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَيَتَعَصَّبُونَ لَهَا غَايَةَ التَّعَصُّبِ، فَلَوْ كَانُوا صَادِقِينَ مُحَقِّقِينَ لَوَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَمْحُوْا مِنْ قُلُوبِهِمْ أَقْوَالَ أَيْمَنَتِهِمْ وَعَقَائِدَهُمُ الَّتِي مَا زَالُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهَا، وَمُقَلِّدِينَ لَهَا تَقْلِيدًا أَعْمَى.

فَالْعَرَضُ مِنْ كَلَامِهِمْ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ قَصْدُهُمُ الْإِنْحِلَالُ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ، وَالتَّمَسُّكِ بِأَقْوَالِ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ.

❦ الوجه الرابع عشر: [الله لا يحب الجهل، ولا الشك]:

قال الشيخ⁽¹⁾: «ومن المعلوم أن الله لا يحبُّ الجهلَ، ولا الشكَّ، ولا الحيرةَ، ولا الضلالَ، وإنما يحبُّ الدينَ والعلمَ واليقينَ، وقد ذمَّ الحيرةَ بقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام: 71].

وقد أمرنا أن نستهديه الصراط المستقيم⁽²⁾، المُتَّصِفُ لِلْعِلْمِ بِالْحَقِّ، والعمل به، والقرآن هو الشفاء والهدى والنور⁽³⁾.

والشكُّ والحيرة ليست محمودةً باتفاق المسلمين.

وغاية ما يكون: أَنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالشَّيْءِ - فالواجبُ عليه أَنْ يَسْكُتَ، وَيَطْلُبَ الْعِلْمَ مِنْ طَرَفِهِ.

وهؤلاء المُلْحِدُونَ الشَّاكُونَ الْمُشَكِّكُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِمَحْوِ الْحَقِّ

(1) مُرَادُ الْعَلَّامَةِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِ«الشَّيْخِ» فِي هَذَا الْكِتَابِ: هُوَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(2) وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفَاسِقِينَ ② [الفاتحة: 6، 7].

(3) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ③ [الأنعام: 82]، وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْفَاسِقِينَ﴾ ④ [البقرة: 2]، وَقَالَ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ ⑤ [النساء: 174]، وَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَبَتُّوا يَأْمُرُوكَ وَأَنْعَزُوا وَنَصَرُوا وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ⑥ [الأعراف: 157].

الَّذِي فِي الْقُلُوبِ؛ لَتَتَوَجَّهَ الْقُلُوبُ إِلَى غَيْرِهِ، مُخَالَفُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلِإِجْمَاعِ الْعُقَلَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ، مُتَابِعُونَ لِأَثْمَتِهِمُ الضَّالِّينَ». انتهى (1).

❦ الوجه الخامس عشر: [الحق يمحَق الباطل]:

إِنَّهُ لَوْ فُرِضَ وَقُدِّرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَمْنَحُو مِنْ قَلْبِهِ كُلَّ عَقِيدَةٍ، وَيَصِيرُ الْقَلْبُ خَالِيًا مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ثُمَّ يَزِنُ بِعَقْلِهِ الْمُسْتَقِيمِ الْعُقَائِدَ الصَّحِيحَةَ النَّافِعَةَ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ - بِمَا يُضَادُّهَا مِنَ الْعُقَائِدِ الْأُخْرَى، وَيَزْنُهَا بِحَقٍّ وَعَدْلٍ وَإِنْصَافٍ وَفَهْمٍ صَحِيحٍ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ لَهُ الْفَرْقُ الْعَظِيمُ، وَيَتَّضِحُ لَهُ أَنَّ مَنْ سَوَّى بَيْنَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ كَالْمُسَوِّي بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالضِّيَاءِ وَالظُّلْمَةِ، فَكَيْفَ بَمَنْ فَضَّلَ الْإِلْحَادَ عَلَى دِينِ رَبِّ الْعِبَادَةِ؟! فَإِنَّ الْحَقَّ بِطَبِيعَتِهِ وَبِرَاهِينِهِ يَمَحَقُ الْبَاطِلَ، وَلَا يَبْقَى لَهُ مَعَهُ قَرَارٌ.

❦ الوجه السادس عشر: [الأمور اليقينية يستحيل أن تقدَح فيها

الشبهات]:

إِنَّ الْأُمُورَ الْيَقِينِيَّةَ وَالْحَقَائِقَ الصَّادِقَةَ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَقْدَحَ فِيهَا الشُّبُهَاتُ وَالتَّشْكِيكَاتُ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَقَدْ عَلِمَ بِالْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ الْمُتَنَوِّعَةِ نَقْلًا وَعَقْلًا وَفُطْرَةً أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ هُوَ الْحَقُّ وَالْيَقِينُ وَالِدِّينُ الْحَقُّ، وَبَرَاهِينُ ذَلِكَ لَا تُحْصَى كَثْرَةً وَقُوَّةً وَوُضُوحًا.

(1) انظر «مجموع الفتاوى» (5 / 178)، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1426هـ - 2005م.

وَقَدْ صُنِّفَتِ الْكُتُبُ الْكِبَارُ وَالصَّغَارُ مِنْ أَصْنَافِ الطَّوَائِفِ فِي تَحْقِيقِ صَدَقِ
الرُّسُلِ، وَصِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَالْهُدَى، وَأَنَّ كُلَّ مَا نَافَاهُ وَخَالَفَهُ إِذَا
قِيسَ بِهِ وَقَرْنَ مَعَهُ، اِضْمَحَلَّ وَبَطَلَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ إِلَيْهِ نِسْبَةٌ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ.
فَمَتَى عَلِمَ الْمُنْصِفُ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ وَالْمُحَالُ،
وَأَنَّ تَأْصِيلَ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ هَذَا الْأَصْلُ الْفَاسِدُ مِنْ أَكْبَرِ مَا يَدُلُّ عَلَى فِسَادِ
أَدْيَانِهِمْ، وَسَفَاهَةِ عُقُولِهِمْ، وَشُوءِ مَقَاصِدِهِمْ.

❁ الوجه السابع عشر: [مناط السعادة فيما جاءت به الرسل]:

إِنَّ الْعُلُومَ النَّافِعَةَ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَأَهْلُ الْهُدَى مَدَارُهَا عَلَى
أَمْرَيْنِ:

أحدهما: أَنْ يُعْرَفَ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ وَالرُّسُلُ عَنْ اللَّهِ،
وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ، وَسَائِرِ الْغُيُوبِ، وَمَا أَخْبَرَتْ
بِهِ، وَحَكَمَتْ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ الْمُكَلَّفُونَ بِهَا، وَيَتَعَامَلُونَ، وَيُعْتَقَدُ ذَلِكَ،
وَيُعْمَلُ بِهِ.

الثاني: مَعْرِفَةُ بَرَاهِينِ ذَلِكَ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّةِ، وَالْوُقُوفُ عَلَى
أَسْرَارِهَا وَحِكْمِهَا.

فهذه العلوم النافعة التي خلق الله لها الخلق، وأُرْسِلَتْ بِهَا الرُّسُلُ، وَتَتَوَقَّفُ
السَّعَادَةُ وَالْفَوْزُ وَالْفَلَاحُ عَلَيْهَا، فَالسَّعْيُ فِي إِزَالَتِهَا مِنَ الْقُلُوبِ أَعْظَمُ مُعَانَدَةٍ
وَمُشَاقَّةٍ وَمُحَارَبَةٍ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ.

وإِنَّمَا الْمَطْلُوبُ الْأَعْلَى حُصُولُهَا فِي الْقُلُوبِ وَثُبُوتُهَا.

فَتَبًّا لَطَائِفَةٍ زَائِغَةٍ قَدَّمَتْ مَقَالَاتِ الْمَلَاحِدَةِ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ!

❀ الوجه الثامن عشر: [الرسل جاؤوا لمحق ما ينافي الإيمان]:

إِنَّ الرُّسُلَ -صلوات الله وسلامه عليهم- جاؤوا بِمَحَقِّ مَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِمَّا يُنَافِي الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَوَابِعِ ذَلِكَ، وَإِزَالَةِ كُلِّ شُبْهَةٍ تَعْرِضُ لِلْقُلُوبِ، تَقْدَحُ فِي هَذَا الْأَصْلِ، أَوْ تُخِلُّ بِهِ -بِالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ الْوَاضِحَةِ؛ لِيَكُونَ الْإِيمَانُ صَحِيحًا، وَالْقَلْبُ سَلِيمًا مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالْإِزَادَاتِ الْفَاسِدَةِ.

والقرآن والسُّنَّةُ مَمْلُوءَانِ مِنْ ذَلِكَ ⁽¹⁾.

(1) مثال ذلك من القرآن: قول الله ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ [النمل: 60]، الآيات.

وقوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ لَدُنْهِمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) [يس: 77-81].

ومثال ذلك من السنة: ما أخرجه البخاري (5717)، ومسلم (2220) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا عَدُوَّ، وَلَا صَفَرَ، وَلَا هَامَةَ!». فقال أعرابي: يا رسول الله، فَمَا بَالُ إِبِلِي تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الطَّبَاءُ، فَيَأْتِي الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ، فَيَدْخُلُ بَيْنَهَا فَيُجْرِبُهَا؟ فقال: «فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلُ؟».

وهذا جوابٌ في غَايَةِ الْبَلَاغَةِ وَالرَّشَاقَةِ، فَإِنْ قَالُوا: أَعْدَاهُ آخَرُ، لَزِمَ التَّسْلُسُ، وَإِنْ قَالُوا: الَّذِي فَعَلَهُ فِي الْأَوَّلِ هُوَ الَّذِي فَعَلَهُ فِي الثَّانِي، ثَبَتَ الْمُدَّعَى، وَهُوَ أَنَّ فَاعِلَ الْجَمْعِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: «هَذَا كَلَامٌ لَا جَوَابَ لَهُ». اهـ. «الفجر الساطع على الصحيح الجامع» للشبهي، تحت

وهؤلاء المُلْحِدُونَ يُرِيدُونَ نَقِيضَ ذَلِكَ، فَهُمْ أَيْمَّةُ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، حَادُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ أَعْظَمَ مُحَادَّةً.

الوجه التاسع عشر: [الإلحاد جحد بقضاء الله وقدره]:

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأُصُولِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا جَمِيعُ الرُّسُلِ، خُصُوصًا خَاتَمُهُمْ وَإِمَامُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ: الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، مَعَ الْحَثِّ عَلَى فِعْلِ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ النَّافِعَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَمْلُوءًا مِنْ ذَلِكَ ⁽¹⁾.

وَأَنَّ جَمِيعَ الْحَوَادِثِ مَرْبُوطَةٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَتَوَاصِي الْعِبَادِ بِيَدِهِ، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ لِلْعِبَادِ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ ⁽²⁾، وَأَنَّ جَمِيعَ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ

=

حديث رقم (5717).

(1) ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الْقَمَر: 49].

وفي حديث جبريل ﷺ الذي أخرجه مسلم (8) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وفيه: «الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ...».

(2) قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

وقال جل وعلا: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56].

وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39].

وقال جل جلاله: ﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16].

وأخرج أبو داود (3919) عن عروة بن عامر ﷺ، قال: «ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:

=

والظَّاهِرَةُ كُلُّهَا مِنَ اللَّهِ ⁽¹⁾.

فهذا الأصل الكبير قرَّره الكتابُ والسُّنَّةُ في مواضع كثيرة، وهو أصلُ توحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وقصدُ تَقْرِيرِهِ في القُلُوبِ، واعتقاده الكامل المُثمر لكل خير. وهؤلاء المُلْحِدُونَ يُريدون ويُحاولون مِنَ الخَلْقِ أَنْ يَجْحَدُوا قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ، ويعتقدوا أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى الاستعانةِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَأْسًا؛ لِأَنَّهُمْ جَحَدُوهُ، وَعَطَّلُوا أفعَالَهُ بِالْكُلِّيَّةِ، واعتقدوا أَنَّ الأفعالَ كُلَّهَا لِلطَّبِيعَةِ، وَكَفَى بِقَوْلِ جَهْلًا وَضَلَالًا أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ الْفَظِيعِ.

❦ الوجه العشرون: [حصر الملحدين العلوم في الحواس]:

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ حَصَرُوا الْعُلُومَ الْمُدْرَكَةَ فِي دَائِرَةِ ضَيْقَةٍ، فَمَا أَدْرَكَهُ بِحَوَاسِّهِمْ وَتَجَارِبِهِمْ أَثْبَتُوهُ، وَمَا لَمْ يَدْرَكَهُ بِذَلِكَ، نَفَوْهُ وَأَنْكَرُوهُ، فَأَنْكَرُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عُلُومَ الْغَيْبِ كُلَّهَا، وَجَحَدُوا رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ وَأفعَالَهُ، وَعَطَّلُوهُ مِنْ صِفَاتِهِ وَأفعَالِهِ؛ إِذْ لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ تَحْتَ مَدَارِكِهِمُ الْقَاصِرَةِ، وَهَذَا بَاطِلٌ شَرْعًا وَعَقْلًا.

أَمَّا الشَّرْعُ: فَجَمِيعُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَجَمِيعِ الرُّسُلِ تُبَيِّنُ قَوْلَهُمْ، وَحَصَرَهُمُ الْعُلُومُ بِمُدْرَكَاتِ الْحِسِّ الظَّاهِرَةِ، وَنَفَيْهِمْ لِمَا عَدَاهَا، وَتَثَبَّتْ بِالْبَرَاهِينِ الْيَقِينِيَّةِ مِنْ عُلُومِ الْغَيْبِ، وَمِنَ الْعُلُومِ الَّتِي لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِالْوَحْيِ مِنَ الْحَقَائِقِ النَّافِعَةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَعَارِفِ الصَّادِقَةِ مَا لَا نِسْبَةَ لِعُلُومِهِمْ كُلِّهَا إِلَيْهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

=

«أَحْسَنُهَا الْقَالَ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»، وَضَعَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الضَّعِيفَةِ» (1619).

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﷻ﴾ [النحل: 53].

قال الشيخ: «وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّ عُلُومَ الْأَنْبِيَاءِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوزَنَ بِمِيزَانِ صِنَاعَتِهِمْ، فَأَكْثَرُ الْحَقَائِقِ النَّافِعَةِ يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا لَا سَبِيلَ إِلَى وَزْنِهَا بِهَا، فَهِيَ يُوزَنُ بِهَا الْمَتَاعُ الْخَسِيسُ دُونَ الْحَقَائِقِ النَّافِعَةِ وَالْأَمْرُ النَّفِيسَ الَّذِي لَيْسَ لِلنُّفُوسِ عَنْهُ عَوْضٌ، وَلَيْسَ سَعَادَتُهَا إِلَّا فِيهِ.

فَهُمْ لَمْ يَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَمْ يَسْتَدْلُوا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي هِيَ الْعُلُومُ الْحَقِيقِيَّةُ وَالْحِكْمَةُ الْيَقِينِيَّةُ الَّتِي فَازَ بِالسَّعَادَةِ عَالِمُهَا، وَخَابَ بِالشَّقَاوَةِ جَاهِلُهَا.

وَأَهْلُ الْمَنْطِقِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُفِيدُ إِلَّا أُمُورًا كُلِّيَّةً مُقَدَّرَةً فِي الذَّهْنِ لَا فِي الْخَارِجِ.

وَالْعُلُومُ الْمَوْزُونَةُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا التَّفَاتُ، أَوْ حَاجَةٌ إِلَى عِلْمِهِمْ، بَلْ إِدْخَالُ عِلْمِهِمْ فِي الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ يُطَوِّلُ الْعِبَارَةَ، وَيُبْعِدُ الْإِشَارَةَ، وَيَجْعَلُ الْقَرِيبَ مِنَ الْعِلْمِ بَعِيدًا، وَالْيَسِيرَ مِنْهُ عَسِيرًا، وَلَا يُفِيدُ إِلَّا كَثْرَةَ الْكَلَامِ وَالتَّشْقِيقِ، مَعَ قِلَّةِ الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ.

وَالْأُمُورُ الْمَوْجُودَةُ الْمُحَقَّقَةُ تُعَلَّمُ بِالْحِسِّ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَتُعَلَّمُ بِالْقِيَاسِ التَّمْثِيلِيِّ، وَتُعَلَّمُ بِالْقِيَاسِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ قَضِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ وَلَا شَمُولٌ وَلَا عَمُومٌ»⁽¹⁾. انتهى

وَأَمَّا الْعَقْلُ: فَجَمِيعُ الْعُقَلَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ يُثْبِتُونَ لِلْعُلُومِ مَدَارِكَ غَيْرَ مَدَارِكِ الْحِسِّ، فَإِنَّ مَدَارِكَ الْعُلُومِ: الْحِسُّ، وَالْعَقْلُ، وَالْأَخْبَارُ الصَّادِقَةُ، فَالْأَخْبَارُ الصَّادِقَةُ أَعْلَاهَا وَأَصْدَقُهَا.

(1) «مجموع الفتاوى» (9/23، 24).

وَأَحَقُّهَا بِالْحَقِّ: خَبَرُ اللَّهِ، وَخَبَرُ رُسُلِهِ، وَفِي ذَلِكَ تَبْيَانٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ، وَهُدًى لِلْخَلَائِقِ، وَتَوْضِيحٌ لِلْحَقَائِقِ، وَتَنْبِيهٌُ لِلْعُقُولِ عَلَى تَوْجِيهِهَا لِكُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ⁽¹⁾.

وَيُلْزَمُ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ: إِبْطَالُ ذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّى يُدْرِكُوهُ بِحَوَاسِّهِمْ، وَهَذَا مِيرَاثٌ مُحَقَّقٌ مِنْ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ الَّذِينَ رَدُّوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ بِمُجَرَّدِ اسْتِبْعَادَاتٍ، وَأَنْكَرُوا مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا، وَهُمْ لَا يَزَالُونَ يَنْقُضُونَ دَلِيلَهُمُ الَّذِي تَمَسَّكُوا بِهِ، فَيُثَبِّتُونَ تَجَارِبَ وَنَظَرِيَّاتٍ، ثُمَّ تَحْصُلُ تَجَارِبُ وَنَظَرِيَّاتٌ أُخْرَى لَهُمْ وَلِقَوْمِهِمْ تَنْفِي مَا أَثْبَتُوهُ، وَتُثَبِّتُ مَا نَقَوْهُ، وَلَا يَزَالُونَ هَكَذَا فِي أَمْرِ مَرِيحٍ حِينَ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْأَسْبَابَ الَّتِي دَعَتْ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ إِلَى تَكْذِيبِ الْحَقِّ، وَهُوَ الْجَهْلُ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَالتَّبَجُّحُ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعُلُومِ الْمُخَالَفَةِ لِعُلُومِ الرُّسُلِ، وَالْكِبَرُ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، وَتَقْلِيدُ أَئِمَّتِهِمُ الضَّالِّينَ، فَضَعْفُ التَّمْيِيزِ، وَتَقْلِيدُ أُمَّةِ الْمَلَاحِدَةِ، وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الَّتِي مَكَنَتْ هَؤُلَاءِ مِنْ لُزُومِ الْبَاطِلِ.

﴿ الوجه الحادي والعشرون: [معاندة الملحدين لله ورسله]:

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَادِّيَّينَ الْمُلْحِدِينَ لَمَّا سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهَذَا الْأَصْلِ الْخَبِيثِ أَكْمَلَ الطُّرُقَ الْمُوصِلَةَ لِلْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَأَصَحَّهَا، وَأَهْدَاهَا، وَأَقْوَمَهَا،

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

[النحل: 89].

وَقَالَ جَل وَعَلَا: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ (٤٤)

[النحل: 44].

وَأَوْضَحَهَا، وَهِيَ الْعُلُومُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهَا الْكُتُبُ السَّمَاوِيَّةُ، وَفَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا عُقُولَ الْعِبَادِ إِلَّا مَنْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُ بِالْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، فَسَدَ هَؤُلَاءِ هَذَا الْبَابَ النَّافِعَ الْعَظِيمَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَخَصَرُوا عُلُومَهُمْ وَمَعَارِفَهُمْ فِي الْأَسْبَابِ الْمَادِّيَّةِ فَقَطْ، وَتَوَسَّعُوا فِيهَا وَمَهَّرُوا، وَاخْتَرَعُوا، وَبَلَّغُوا حَيْثُ انْتَهَتْ إِلَيْهِ مَعَارِفُهُمْ وَأَفْهَامُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ بِذَلِكَ صِلَتُهُمْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وَبِعُلُومِ الرُّسُلِ، وَبِالْهَدَايَةِ الصَّحِيحَةِ الْمُثْمِرَةِ لِصَلَاحِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - فَوَقَّعُوا فِي أَمْرِ مَرِيحٍ ⁽¹⁾، وَتَخَبَّطَتْ نَظَرِيَّاتُهُمْ، وَكُلَّمَا اتَّفَقُوا أَوْ أَكْثَرَهُمْ عَلَى نَظَرِيَّةٍ عَنْ انْتِظَامِ الْأَسْبَابِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَارْتِبَاطِهَا الْوَثِيقِ حَارُوا فِي الْمَوَادِّ الْأُولِيَّةِ، وَفِي سَبَبِ الْأَسْبَابِ، فَيَنْقُضُونَ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ، وَيُبْطِلُونَ مَا كَانُوا أَسَّسُوهُ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ مَا دَامُوا لَمْ يَنْفَدُوا مِنَ الْأَسْبَابِ إِلَى مُسَبِّبِهَا، وَمِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَى خَالِقِهَا، فَمَا دَامُوا كَذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْاسْتِقْرَارَ عَلَى رَأْيٍ جَامِعٍ لِحِمَايَتِهِمْ، وَمُسْعِدٍ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنِهَايَةَ مَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الرُّوم: 7]، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التَّوْبَةُ: 67]، وَتَرَكَّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَغِيَّهِمْ وَضَلَالِهِمْ يَعْمَهُونَ ⁽²⁾، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غَافِر: 83].

(1) أي: مختلط، ومنه قوله ﷺ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾ [ق: 5].

(2) قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15]. أي: يترددون مُتَحَيِّرِينَ، لَا يَمِيزُونَ حَقًّا مِنْ بَاطِلٍ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: الْعَمَةُ: عَمَى الْقَلْبَ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. «أَضْوَاءُ الْبَيَانِ» لِلشَّيْخِ طَباطُبا (5/ 345).

❁ الوجه الثاني والعشرون: [أصلهم الباطل جرهم إلى إبطال الوحي

والمعاد]:

أَنَّهُمْ حِينَ أَصَلُوا هَذَا الْأَصْلَ الْبَاطِلَ الَّذِي جَعَلُوهُ مِيزَانَ الْعُلُومِ كُلِّهَا؛ تَجَرَّؤُوا جَرَاءَ فُطْيَعَةٍ عَلَى تَحْلِيلِ حَيَاةِ الرُّسُلِ بِنَاءً عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، وَتَجَرَّهَمُوا⁽¹⁾ بِعُقُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ وَعُلُومِهِمُ الْقَاصِرَةِ إِلَى الْقَدَحِ بِالرُّسُلِ، وَإِسْقَاطِ مَنْزِلَتِهِمْ مِنْ قُلُوبِ السَّمَاعِينَ لَهُمْ، الْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِهِمْ، حَتَّى أَبْطَلُوا بِذَلِكَ الْوَحْيَ وَالرَّسَالََةَ وَالْمَعَادَ، وَأَنْكَرُوا الرَّبَّ تَصْرِيحًا وَتَعْرِضًا، وَتَدَرَّجُوا بِذَلِكَ إِلَى الْقَدَحِ فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَلَمْ يَجْعَلُوا لِلرُّسُلِ مِيزَةً عَلَى غَيْرِهِمْ، بَلْ فَضَّلُوا طَوَاغِيَتِهِمْ وَفَلَّسَفَتَهُمْ عَلَيْهِمْ.

فَأَصْلُ هَذِهِ آثَارُهُ الْخَبِيثَةُ، وَهَذِهِ ثَمَرَاتُهُ السُّمِّيَّةُ الْمُتَشْنَةُ الْحَنْظَلِيَّةُ⁽²⁾، كَيْفَ يَلِيقُ بِمَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْقُولٍ أَنْ يُصْغِيَ إِلَيْهِ، أَوْ يَبْنِي عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ عُلُومِهِ وَمَعَارِفِهِ، فَإِنَّهُ مَفْسُدٌ لِلْأَدْيَانِ وَالْعُلُومِ، وَمُخْبِطٌ لِلْأَذْهَانِ.

فَهُوَ أَعْظَمُ أَصُولِ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

❁ الوجه الثالث والعشرون: العلوم الحسية قطرة من بحر علوم الرسل:

إِنَّ الْعُلُومَ الْمُدْرَكَةَ بِالْحِسِّ إِذَا نُسِبَتْ إِلَى عُلُومِ الرُّسُلِ - كَالْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ، وَأَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَأَحْوَالِ الْآخِرَةِ، وَالْجَزَاءِ عَلَى

(1) أَي: أَقْدَمُوا.

(2) الْحَنْظَلُ: نَبَاتٌ مَعْرُوفٌ، طَعْمُهُ مُرٌّ، وَيُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي شِدَّةِ الْمَرَارَةِ.

الخير والشرّ، وأمور الغيب، والإخبار بما كان وما يكون، وما يُسعدُ النفوسَ ويُشقيها- كانت كقطرة في بحرٍ لجي⁽¹⁾.

فأمور الغيب التي تتوقّف على إخبار الرُّسل ووحى الله وهدايته العامّة والخاصّة أبطلها هؤلاء الملاحدة⁽²⁾؛ إذ ضيّقوا دائرة المعلومات جدًّا في مدركات حواسّهم، فلهذا حازوا واضطربوا، ولم يستقرّ لهم قرارٌ على أقوال تتفق عليها آراؤهم؛ لأنّهم أنكروا العلم الحقيقيّ النافع الذي يُزكيّ النفوس ويُسعدّها، ويرقيّها في مدارج الكمال.

ومن المنكر والزور: تخصّصهم علومهم القاصرة باسم العلم، فحيث أطلقوا «العلم» أرادوا به: علوم الفلسفة، وما نتج عنها، ونفّوا العلم عمّا سواها، وهذا من باب المكابرات وقلب الحقائق، وإلّا فالعلم الحقيقيّ الذي أثنى الله عليه في كتابه: علوم الرُّسل، وهداية الوحي المُنزل من عند العليم الخبير⁽³⁾، وما سواها فإمّا علوم ضارّة، وإمّا قليلة النفع، وإمّا نافعة في أمور الدنيا دون أمور

(1) بحرٌ لجيٌّ: عميقٌ كثيرُ الماء.

(2) أي: أنكروها، وقالوا بعدم وقوعها، وليس المعنى قطعاً: أنهم أبطلوها بالأدلة والبراهين.

(3) ومن ذلك قول ﷺ: ﴿آلَهُ ۙ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة: 1، 2]

وقوله ﷺ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ

وَالْفُرْقَانِ ۝﴾ [البقرة: 185]

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝﴾ [البقرة: 38].

وقوله جل وعلا: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن

اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝﴾ [البقرة: 123] وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

الْقِسْمَةِ أَعْمَىٰ ۝﴾ [طه: 123، 124].

الدِّين، وَقَدْ نَفَخْتَ رُوحَ الْكِبَرِ فِي قُلُوبِ أَصْحَابِهَا، وَاحْتَقَرُوا لِأَجْلِهَا الْعُلُومَ النَّافِعَةَ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا، فَمَا أَضَرَّهَا وَأَضَرَّ ثَمَرَاتِهَا، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ!

❁ الوجه الرابع والعشرون: [زعمهم أن الرجوع إلى الماضي رجعية]:

أَنَّهُ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ الْخَبِيثِ الْبَاطِلِ حَكَمُوا حُكْمًا فُظِيحًا بَاطِلًا، وَهُوَ أَنَّ الرَّجُوعَ إِلَى الْمَاضِي رَجْعِيَّةٌ فَاسِدَةٌ، وَأَنَّهُ يَجِبُ إِهْدَارُ كُلِّ قَدِيمٍ، وَهَجَنُوا⁽¹⁾ بَعَارَاتِهِمُ الْمُتَنَوِّعَةَ كُلَّ قَدِيمٍ؛ لِيَصْلُوا بِذَلِكَ لِلْقَدَحِ فِيمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، وَقَالُوا: إِنَّ الْبَشَرَ لَمْ يَبْلُغُوا سَنَ الرُّشْدِ إِلَّا فِي هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي طَغَتْ فِيهِ عُلُومُ الْمَادَّةِ، وَانْحَلَّتِ الْأَخْلَاقُ، وَشَاعَتِ الْإِبَاحِيَّةُ وَالْفَوْضَوِيَّةُ الضَّارَّةُ الْمُهْلِكَةُ، حَتَّى تَفَاقَمَ الشَّرُّ، وَعَمَّ الطُّغْيَانُ، وَاضْمَحَلَّ الْخَيْرُ.

وهذا من أعجب العجائب، كيف يَكُونُ الرُّسُلُ -صلوات الله وسلامه عليهم، وخصوصًا سيِّدهم ونبيُّهم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ- وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ مِنْ أُمَّةٍ الْهُدَى، وَمَصَابِيحِ الدُّجَى، وَخَوَاصِّ الْخَلْقِ- لَمْ يَبْلُغُوا سَنَ الرُّشْدِ، وَهُمْ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُطْلَقِ، وَبِهِمْ هَدَى اللهُ الْبَشَرَ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ صَاحِحٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ، وَخَيْرٍ وَرَشِدٍ وَصَلَحٍ؟!

كيف يَكُونُونَ هُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ مِنَ الْهَادِينَ الْمَهْدِيِّينَ الْمُهْتَدِينَ لَمْ يَبْلُغُوا سَنَ الرُّشْدِ، وَهَؤُلَاءِ الزَّانِقَةُ الْمَلَا حِدَةُ هُمْ الَّذِينَ بَلَّغُوا سَنَ الرُّشْدِ؟! سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ!

(1) أي: قَبَّحُوا، وَعَابُوا.

ويكفي تصوُّر هذا القول، وتصور أحكامه ولَوَازِمه - مَعْرِفَةً ببطلانه، فإنَّ أكبر الدَّلَال على رُشد الرّشيد وسَفَه السّفيه: تَصَرُّفاته، ونتائج أعماله، وثمراتها.

انظر إلى أحوال الرُّسل وأتباعهم كيف هُذوا إلى كلِّ عقيدة صالحة نافعة، وإلى كلِّ خلقٍ جميل وعَمَلٍ صالح؟! وكيف نهوا وحذّروا عَمَّا يصادُّ ذلك ويُنَاقِضُه؟! وكيف نَشَرُوا الصَّلاحَ والرَّحمةَ والحِكمةَ على البلاد والعِبَاد؟! وكيف تَمَّ بإرشادهم الصَّلاحُ الَّذي ليس بعده صلاحٌ، والسَّعادةُ العَاجِلَةُ والآجِلَةُ والفلاح؟!

فَهَلْ تَجِدُ عِلْمًا نَافِعًا، أو خُلُقًا فَاضِلًا، أو خَيْرًا نَاصِيًا، أو شَرًّا مَدْفُوعًا، أو ضَرًّا مَرْفُوعًا إِلَّا بسبب الرُّسل، وإرشادهم، وهدايتهم، وسعيهم؟!

وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ الْمَادِّيُّونَ فَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ آثَارَ عُلُومِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ هَبَطَتْ بِالْبَشَرِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَشَقُّوا فِي دُنْيَاهُمْ كَمَا شَقُّوا فِي دِينِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، وَهَذِهِ الْمُخْتَرَعَاتُ الَّتِي تَكْبَرُوا بِهَا وَطَغَوْا وَبَغَوْا؛ هَلْ تَوَسَّلُوا بِهَا إِلَى الْخَيْرِ وَالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ وَالرَّحْمَةِ، أَمْ صَارَتْ أَكْبَرَ نَكْبَةٍ عَلَى الْبَشَرِ، وَأَعْظَمَ مُصِيبَةٍ عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ؟

فَأَيْنَ الرُّشْدُ، وَأَيْنَ الْعُقُولُ، وَأَيْنَ الْأَحْلَامُ الصَّحِيحَةُ مِنْ قَوْمٍ هَذَا وَصْفُهُمْ وَوَصَفِ أَعْمَالِهِمُ الْمُطَابِقِ لَأَحْوَالِهِمُ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَحَدًا أَنْكَارَهُ؟!

ولكن الكِبَرُ والأَشْرُ⁽¹⁾ والنَّظَرُ الْقَاصِرُ وَالبَهْرَجَةُ رَوَّجَتْ بِاطْلِهِمْ، فَجَرَفَتْ جُمُهورُ الْبَشَرِ الَّذِينَ لَا بَصِيرَةَ لَهُمْ وَلَا عُقُولَ صَحِيحَةَ، وَإِنَّمَا مَعَهُمُ التَّقْلِيدُ

(1) الأشر: كثرة الكذب والتجبر والغرور.

الأعمى والزَّهْو والغُرُور.

فيا مَنْ عافاه الله من هذه البليَّة، وَمَنْ عليه بهدَاية الرُّسُل، اَحْمَدُ الله حَمْدًا كثيرًا، واشْكُرْهُ شُكْرًا مُتَّابِعًا؛ فَإِنَّ الله أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعَمٍ لَا يُقَادَرُ قَدْرُهَا، وَلَا يُبْلَغُ كُنْهَهَا، وَسَلِّ رَبِّكَ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الْمُؤَيَّدِ بِالْعَقْلِ الصَّرِيحِ، وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَالطَّرَائِقِ الْمُسْتَقِيمَةِ!

❦ الوجه الخامس والعشرون: [لا عاصم من الفوضوية والشهوات إلا بما

جاءت به الرسل]:

إِنَّهُ لَا عَاصِمَ مِنَ الْفَوْضُوِيَّةِ وَانْطِلَاقِ النُّفُوسِ فِي أَغْرَاضِهَا وَشَهَوَاتِهَا السَّبْعِيَّةِ الْبَهِيمِيَّةِ⁽¹⁾ إِلَّا الْإِعْتَصَامَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، وَالْحَثُّ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ ضِدِّهَا.

وهؤلاء المُلْحِدُونَ لَمَّا أَعْرَضُوا وَعَارَضُوا الْحَقَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَقَاوَمُوهُ أَشَدَّ الْمُقَاوِمَةِ بِخَيْلِهِمْ وَرَجَلِهِمْ وَشَيَاطِينِهِمْ، وَفَتَحُوا بَابَ الْإِسْتِغْنَاءِ بِمَا تَقْذِفُ بِهِ الْقُلُوبُ مِنَ الْأَفْكَارِ التَّابِعَةِ لِلشَّهَوَاتِ النَّفْسِيَّةِ - انْدَفَعَتْ أَفْكَارُهُمْ وَإِرَادَاتُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ إِلَى شَهَوَاتِ الْغَيِّ، وَإِعْطَاءِ النُّفُوسِ مُنَاهَا، وَلَمْ تَقِفْ عِنْدَ

(1) فَسَمَّ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ نُفُوسَ النَّاسِ إِلَى كَلْبِيَّةٍ، وَسَبْعِيَّةٍ، وَمَلَكِيَّةٍ؛ فَالْكَلْبِيَّةُ تَقْنَعُ بِالْعَظَمِ وَالْكَسْرَةِ وَالْجِيفَةِ وَالْقِدْرَةِ، وَالسَّبْعِيَّةُ لَا تَقْنَعُ بِذَلِكَ، بَلْ يَقْهَرُ النُّفُوسُ تُرِيدُ الْإِسْتِغْنَاءَ عَلَيْهَا بِالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَأَمَّا الْمَلَكِيَّةُ فَقَدْ انْتَفَعَتْ عَنْ ذَلِكَ، وَشَمَرَتْ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى؛ فَهَمَّتْهُ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ، وَإِثَارُ مَحَبَّتِهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَإِنَّمَا تَأْخُذُ مِنَ الدُّنْيَا مَا تَأْخُذُ مِنْهَا لِتُسْتَعِينَ بِهِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى قَاطِرِهَا وَرَبِّهَا وَوَلِيِّهَا، لَا لِتَنْقَطِعَ بِهِ عَنْهُ. «الْوَاوِلُ الصَّيِّبُ» (ص 72)، دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، بَيْرُوت، الطَّبْعَةُ الْأُولَى، 1405هـ - 1985م.

حَدَّ - فاستباحَت كُلَّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ مُحَرَّمٍ، ووقعوا في الإباحية المحضّة، وصارت الحيوانات - على نقصها - أحسن حالاً منهم.

ثُمَّ مع هذا الشرّ العريض والفساد الكثير زَيْنَ لَهُم الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؛ فَجَعَلُوا يَدْعُونَ إِلَى هَذِهِ الْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: 96، 97].

انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مُرتابين، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون، كَمْ هَدَمُوا مِنْ مَحَاسِنَ وَفَضَائِلَ! وَكَمْ أَقَامُوا مِنْ شُرُورٍ وَرِذَائِلَ! وَلَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ^(١)، وَلَا تَغْتَرَّ بِمَا أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ مِنْ إِدْرَاكَاتٍ وَقُوَّةِ ذِكَاةٍ، وَفِطْنَةِ وَأَعْمَالٍ^(٢)؛ فَإِنَّ الذِّكَاةَ وَتَوَابِعَهُ إِذَا لَمْ يُصْرَفْ فِيهَا خُلُقٌ لَهُ الْعَبْدُ، وَإِذَا أَنْكَرَ صَاحِبُهُ أَوْضَحَ الْأَشْيَاءَ وَأَحَقَّهَا - كَانَ ضَرَرًا كَبِيرًا عَلَى صَاحِبِهِ، مَا لَهُ الْهَلَاكُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٦﴾ [الأحقاف: 26]؛ فَذَكَرَ أَنَّ جُحُودَهُمْ لَا يَأْتِيهِ أَوْجِبَ لَهُمْ أَلَّا يَنْتَفِعُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ هَذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ، وَصَارَتِ النِّعَمُ جَالِبَةً لِلنِّقَمِ.

(١) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعُ آلَهُمُ ۝١٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ۝١٨﴾ [آل عمران: 196 - 198].

(٢) فَقَدْ يَكُونُ هَذَا اسْتِدْرَاجًا مِنْ اللَّهِ لَهُمْ؛ وَإِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾ وَأَمْلَى لَهُمْ أَنْ يَكِيدَ مِتَيْنٌ ۝٤٥﴾ [القلم: 44].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [٨٢] [غافر: 83]؛ فَهُمْ عَظَمُوا عُلُومَهُمُ الَّتِي تَبَجَّحُوا بِهَا، وَتَكَبَّرُوا، وَقَاوَمُوا الرُّسُلَ، وَسَخِرُوا بِمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ؛ فَانْحَرَفَتْ عُلُومُهُمْ إِلَى الْبَاطِلِ، وَنَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

❁ الوجه السادس والعشرون: [أخبار الرسل الغيبية موجودة ثابتة]:

قال الشيخ: «ما أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْغَيْبِ فِيهِ أُمُورٌ مَوْجُودَةٌ ثَابِتَةٌ أَكْمَلَ وَأَعْظَمَ مِمَّا نَشْهَدُهُ نَحْنُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَتِلْكَ أُمُورٌ مَحْسُوسَةٌ تُشَاهَدُ وَتُحَسُّ، وَلَكِنْ بَعْدَ الْمَوْتِ وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَشْهَدَهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ مَنْ يَخْتَصُّهُ اللَّهُ بِذَلِكَ، لَيْسَتْ عَقْلِيَّةً قَائِمَةً بِالْعَقْلِ كَمَا تَقُولُهُ الْفَلَسَفَةُ.

ولهذا كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَسِّيَّاتِ الَّتِي نَشْهَدُهَا: أَنَّ تِلْكَ غَيْبٌ، وَهَذِهِ شَهَادَةٌ، وَكَوْنُ الشَّيْءِ غَائِبًا أَوْ شَاهِدًا أَمْرٌ إِضَافِيٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا، فَإِذَا غَابَ عَنَّا، كَانَ غَيْبًا، وَإِذَا شَهِدَنَاهُ كَانَ شَهَادَةً، وَلَيْسَ هُوَ فَرْقًا يَعُودُ إِلَى أَنَّ ذَاتَهُ تَعْقِلُ، وَلَا تَشْهَدُ، وَلَا تُحَسُّ، بَلْ كُلُّ مَا يَعْقِلُ وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحَسَّ بِحَالٍ - فَإِنَّمَا يَكُونُ فِي الدِّهْنِ، وَالْمَلَائِكَةُ يُمَكِّنُ أَنْ يُشْهَدُوا وَيُرَوَّاهُ، وَالرَّبُّ -تعالى- يُمَكِّنُ رُؤْيَاهُ بِالْأَبْصَارِ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَرُونَهُ فِي الْقِيَامَةِ، وَفِي الْجَنَّةِ، كَمَا تَوَاتَرَتْ بِذَلِكَ النُّصُوصُ⁽¹⁾. انتهى⁽²⁾.

(1) ومنها قول الله ﷻ: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ [٢٢] إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ [٢٣] [القيامة: 22، 23].

وما أخرجه البخاري (554) ومسلم (633) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَظَنَرُ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةً -يعني البدر- فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَافُونَ فِي رُؤْيَاهُ...»، الحديث. وقوله ﷺ: «لَا تُضَافُونَ»: يعني: لَا يَنَالُكُمْ صَيِّمٌ، أَي: تَعَبٌ، أَوْ ظُلْمٌ».

(2) «الرَّدُّ عَلَى الْمُنْطَقِيِّينَ» لابن تيمية (ص 309، 310)، دار المعرفة، بيروت.

وهذا يُبطل أَصْلَ الْمَلَا حِدَةِ الَّذِينَ يَحْصِرُونَ الْمَعْلُومَاتِ بِمُدْرَكَاتِهِمُ الْخَاصَّةِ الْقَاصِرَةِ، فَإِنَّهُ ثَبَتَ بِالْبَرَاهِينِ الْقَوِيَّةِ صِدْقُ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ عَنْهُمْ هَذِهِ الْأُمُورُ، وَحَصَلَ الْيَقِينُ التَّامُّ لِجَمِيعٍ مَنْ صَدَّقَهُمْ، فَإِنْكَارُ الْمُلْحِدِينَ لَذَلِكَ إِبْطَالٌ لِأَعْظَمِ الْمَعْلُومَاتِ بِأَقْوَى الْبَرَاهِينِ وَأَصَحِّهَا وَأَوْضَحِّهَا، وَذَلِكَ مُكَابَرَةٌ مِنْهُمْ وَمُبَاهَاةٌ⁽¹⁾.

وَقَالَ الشَّيْخُ: «وَاسْتَدْلَالُ الْمَلَا حِدَةِ عَلَى إِحَادِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الْأَحْزَابُ: 62]، وَ﴿... تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِرُ: 43]؛ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ لَا يَتَغَيَّرُ، بَلْ لَا تَزَالُ الشَّمْسُ تَطْلُعُ وَتَغْرُبُ؛ لِأَنَّهَا عَادَةٌ لِلَّهِ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: انْخِرَاقُ الْعَادَاتِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ بِالْجُمْلَةِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَخْلُقِ الْعَالَمَ عَبَثًا وَبَاطِلًا⁽²⁾، بَلْ لِأَجْلِ الْجَزَاءِ، فَكَانَ هَذَا مِنْ سُنَّتِهِ الْجَمِيلَةِ، وَهُوَ جَزَاؤُهُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ، وَعُقُوبَةِ أَعْدَائِهِ، فَبَعَثُ النَّاسَ لِلْجَزَاءِ هُوَ مِنْ هَذِهِ السُّنَّةِ.

(1) أَصْلُ الْبُهْتِ: أَنْ يُقَالَ الْبَاطِلُ بِصَلْفٍ وَغُرُورٍ، وَمِنْهُ افْتِرَاءُ الْبَاطِلِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «اتَّذَرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (2589) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ] [الْمُؤْمِنُونَ: 115، 116].
وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: 27].

وَهُوَ لَمْ يُخْبَرْ بِأَنَّ كُلَّ عَادَةٍ لَا تُتَّقَضُّ، بَلْ أَخْبَرَ عَنِ السُّنَّةِ الَّتِي هِيَ عَوَاقِبُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ بِإِثَابَةِ أَوْلِيَائِهِ، وَنَصْرِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَهَذِهِ هِيَ الَّتِي أَخْبَرَ أَنَّهُ لَنْ يُوجَدَ لَهَا تَبْدِيلٌ، وَلَا تَحْوِيلٌ، كَمَا قَالَ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (٤٣) [فاطر: 43]، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَادَةَ تَتَّبِعُ إِرَادَةَ الْفَاعِلِ، وَإِرَادَةَ الْفَاعِلِ الْحَكِيمِ هِيَ إِرَادَةُ حَكِيمَةٍ، فَتُسَوِّي بَيْنَ الْمُتَمَثِّلَاتِ. وَلَنْ يُوجَدَ لِهَذِهِ السُّنَّةِ تَبْدِيلٌ وَلَا تَحْوِيلٌ، وَهُوَ إِكْرَامُ أَهْلِ وَلَايَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَنَصْرُ رُسُلِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الْمُكَذِّبِينَ (1).

فَهَذِهِ السُّنَّةُ تَقْتَضِيهَا حُكْمُهُ ﷺ، فَلَا انْتِقَاضَ لَهَا، بِخِلَافِ مَا اقْتَضَتْ حُكْمُهُ تَغْيِيرَهُ؛ فَذَلِكَ تَغْيِيرُهُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَيْضًا، وَمِنْ سُنَنِهِ الَّتِي لَا يُوْجَدُ لَهَا تَبْدِيلٌ، وَلَا تَحْوِيلٌ.

لَكِنْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ رَدٌّ عَلَى مَنْ يَجْعَلُهُ يَفْعَلُ بِمُجَرَّدِ إِرَادَةِ تَرْجِيحِ أَحَدِ الْمُتَمَثِّلِينَ بِلَا مُرْجِحٍ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُ عِنْدَهُمْ سُنَّةٌ لَا تَتَبَدَّلُ، وَلَا حِكْمَةٌ تُقْصَدُ، وَهَذَا خِلَافُ النُّصُوصِ وَالْعُقُولِ، فَإِنَّ السُّنَّةَ تَقْتَضِي تَمَاطُلَ الْآحَادِ، وَأَنَّ حُكْمَ الشَّيْءِ حُكْمُ نَظِيرِهِ، فَيَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْمُتَمَثِّلَاتِ، وَهَذَا خِلَافُ قَوْلِهِمْ (2). اهـ.

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) [الروم: 47].

وَقَالَ جَل جَلَالِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (٥١) [غافر: 51].

(2) «الرَّدُّ عَلَى الْمُنْطَقِيِّينَ» (ص 391).

❁ الوجه السابع والعشرون: [كفار اليهود والنصارى أعلم من الملحدين

بالأمور الإلهية]:

قال الشيخ: «ما جاءت به الرُّسل -صلوات الله عليهم- لا يعرفه هؤلاء الفلاسفة، وليسوا قريبين منه، بل كُفَّار اليهود والنَّصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية، لا فرق بين العلوم الثَّقَلِيَّة ولا العَقَلِيَّة الصَّحِيحَة الَّتِي جاءت بها الرُّسل، فهذه العَقَلِيَّات الدِّينِيَّة الشَّرْعِيَّة الإلهية هي الَّتِي لَمْ يَشْمُوا رَائِحَتَهَا، ولا في عُلُومِهِمْ ما يدلُّ عليها.

وأما ما اخْتُصَّت الرُّسل بمعرفته، وأخبرت به من الغيب، فذاك أمرٌ أعظم من أن يُذكر تَرْجِيحُهُ على الفَلَسَفَة⁽¹⁾.

فإذا كان أشرفُ العُلُوم لا سَبِيلَ لِلْفَلَّاسِفَة إلى مَعْرِفَتِهَا بطريقهم كما قَرَّر وتَقَرَّر، واعترفوا به؛ لَزِمَ أَمْرَانِ:

أحدهما: أَنَّهُ لا حُجَّةَ لَهُمْ على ما يُكَذِّبُون به مِمَّا ليس في قياسهم دليلٌ عليه. الثاني: أَنَّ ما عِلْمُوهُ خَسِيسٌ بالنِّسْبَة إلى ما جَهِلُوهُ، فكيف إذا عِلِمَ أَنَّهُ لا يُفِيد النِّجاة ولا السَّعادة، والرَّسُولُ أَخْبَرَ عن أُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ، مثل نُوحٍ وَخِطَابِهِ لِقَوْمِهِ وَأَحْوالِهِ المُعَيَّنَةِ، ومثل إِبْرَاهِيمَ وَأَحْوالِهِ المُعَيَّنَةِ، ومثل مُوسَى وَعِيسَى وَأَحْوالِهِمَا المُعَيَّنَةِ.

وليس شيءٌ من ذلك يُمكن معرفته بقياسهم، لا البُرْهاني ولا غيره، فَإِنَّ أَقْيَسَتَهُمْ لا تُفِيد إِلَّا أُمُورًا كُليَّةً، وهذه أُمُورٌ خَاصَّةٌ.

(1) انظر «الرد على المُنطِقِيين» (ص 394، 395).

وكذلك أَخْبَرَ عَمَّا كَانَ وَسَيَكُونُ بَعْدَهُ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُعَيَّنَةِ، حَتَّى أَخْبَرَ عَنِ التَّتَرِ⁽¹⁾ بِمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ غَيْرِ وَجْهِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقَاتِلُوا التُّرْكَ، صِغَارَ الْأَعْيُنِ، ذُلْفَ الْأَنْوَفِ، حُمْرَ الْخُدُودِ، يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»⁽²⁾.

فَهَلْ يُتَصَوَّرُ أَنَّ قِيَاسَهُمْ وَبُرْهَانَهُمْ يَدُلُّ عَلَى آدَمِيٍّ مُعَيَّنٍ أَوْ أُمَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُوصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ قَبْلَ ظُهُورِهِمْ بِنَحْوِ سَبْعِ مِئَةِ سَنَةٍ؟!

(1) يَعُودُ أَصْلُ التَّتَارِ إِلَى الشُّعُوبِ التُّرْكِيَّةِ الَّتِي هِيَ سُكَّانُ الْقَارَةِ الْأَسْيُورِيَّةِ فِيمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْجِبَالِ بَدْءاً مِنَ الْهَضْبَةِ الْإِيرَانِيَّةِ حَتَّى مُنْتَهَى الْقَارَةِ فِي أَفْصَى شَرْقِ الصِّينِ. والتَّتَارُ فِرْعٌ مِنْ هَذِهِ الشُّعُوبِ التُّرْكِيَّةِ يَسْكُنُونَ صَحْرَاءَ جُوبِي بِأَطْرَافِ بِلَادِ الصِّينِ الشَّمَالِيَّةِ -مَنْغُولِيَا الْآنَ- وَهُمْ قَبَائِلُ رَعَوِيَّةٍ تَعِيشُ عَلَى الرِّعْيِ وَالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ أَمَّا دِيَانَتُهَا فَهِيَ قَبَائِلُ وَثْنِيَّةٍ تَعْبُدُ الْأَوْثَانَ وَالْكَوَاكِبَ وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ عِنْدَ شُرُوقِهَا وَغُرُوبِهَا وَتَنْتَشِرُ بَيْنَهَا دِيَانَةُ يُطْلَقُ عَلَيْهَا الشَّامَانِيَّةُ؛ تَقُومُ عَلَى تَقْدِيسِ أَرْوَاحِ الْأَجْدَادِ وَتَقْدِيمِ الْقَرَابِينِ لِلْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرَسَةِ. وَيُطْلَقُ لَفْظُ (التَّتَار) عَلَى قَبَائِلِ الْمَغُولِ وَالتُّرْكِ وَالْإِيْجُورِ وَغَيْرِهِمْ. رَاجِعُ «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ»، وَ«النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ»، وَ«سِيرُ أَعْلَامِ الْبِلَاءِ».

(2) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (2928)، وَمُسْلِمٌ (2912) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَقَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذُلْفَ الْأَنْوَفِ»: الذُّلْفُ: جَمْعُ أَذْلَفٍ، كَأَحْمَرٍ وَحُمْرٍ، وَمَعْنَاهُ: فُطِسَ الْأَنْوَفُ قِصَارُهَا مَعَ انْطِطَاحٍ. قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»، الْمَجَانُّ: جَمْعُ مِجْنٍ، وَهُوَ التُّرْسُ، وَالْمُطْرَقَةُ: هِيَ الَّتِي أَلْبَسَتْ الْعَقِبَ، وَأُطْرِقَتْ بِهِ طَاقَةٌ فَوْقَ طَاقَةٍ. قَالُوا: وَمَعْنَاهُ: تَشْبِيهِ وَجْهِهِ التُّرْكَ فِي عَرْضِهَا وَتَنُورٍ وَجَنَاتِهَا بِالتُّرْسَةِ الْمُطْرَقَةِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا مُعْجَزَاتٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَدْ وَجِدَ قِتَالُ هَؤُلَاءِ التُّرْكِ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِمُ الَّتِي ذَكَرَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صِغَارُ الْأَعْيُنِ، حُمْرُ الْوُجُوهِ، ذُلْفُ الْأَنْوَفِ، عِرَاضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ، يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ؛ فَوُجِدُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كُلِّهَا فِي زَمَانِنَا، وَقَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مَرَّاتٍ، وَقَاتَلَهُمُ الْآنَ، وَنَسَّأَ اللَّهُ الْكَرِيمُ إِحْسَانَ الْعَاقِبَةِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَمْرٍ غَيْرِهِمْ، وَسَائِرِ أَحْوَالِهِمْ، وَإِدَامَةِ اللَّطْفِ بِهِمْ وَالْحِمَايَةِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى». اهـ. «شرح النووي على مسلم» (38، 37/18) باختصار.

وكذلك إخباره بخروج النار التي خَرَجَتْ سنة (655)⁽¹⁾، وسائر ما أخبر به من الأمور الماضية، والمستقبلية، والأمور الحاضرة، مما يعلمون أنه يمتنع أن يعرف ذلك بالقياس البرهاني وغيره، فإن ذاك يدلُّ على أمرٍ مُطلقٍ لا على شيءٍ مُعَيَّنٍ.

وليس مع الفلاسفة ما ينفي وجود ما يمكن أن يختصَّ به بعض الناس بالباطن؛ كالملائكة والجنِّ، ولا معهم ما ينفي تمثُّل الأرواح أجسامًا حتَّى تُرى بالحسِّ الظَّاهر، وما أشبه ذلك، فليس معهم في نفي هذه الأمور الثَّابتة بأخبار الأنبياء وبراهين آخر إلاَّ الجهل المحض، فقد كَذَّبوا بما لم يُحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله، مع أنَّ عامَّة أساطين الفلاسفة يُقرُّون بذلك، وكذلك أئمَّة الأطباء، وطريق هؤلاء الملاحدة لا يُفرِّق بين الحقِّ والباطل بخلاف طريق الأنبياء. انتهى⁽²⁾.

وقال في سبب إلحاد بعض الملحدين: «مِنْ أَضَرَّ الْأُمُورَ عَلَى الْعَبْدِ: أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنِ الْعَامَّةِ بِبَعْضِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا، فَإِذَا جَاءَتْهُ الْعُلُومُ الدِّينِيَّةُ النَّافِعَةُ الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ فِي عِلْمِهِ نَفَاها، فَخَسِرَ دِينُهُ، وَصَارَ عِلْمُهُ الْجَزْئِيَّ

(1) أخرج البخاري (7118)، ومسلم (2902) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْجَبَّازِ تُضِيءُ أَغْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى».

قال الإمام النووي رحمته الله: «وَقَدْ خَرَجَتْ فِي زَمَانِنَا نَارٌ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، وَكَانَتْ نَارًا عَظِيمَةً جَدًّا مِنْ جَنْبِ الْمَدِينَةِ الشَّرْقِيِّ وَرَاءَ الْحَرَّةِ؛ تَوَاتَرَ الْعِلْمُ بِهَا عِنْدَ جَمِيعِ الشَّامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ، وَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَهَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ». «شرح النووي على مسلم» (18 / 28). ولعل هذه الحادثة كانت آخر سنة (654)، واستمرت إلى أوائل سنة (655)؛ فذكر الإمام النووي رحمته الله بداية وقوعها، وذكر العلامة السَّعْدِي ختام وقوعها، أو لعلَّ هذا من اختلاف المؤرخين.

(2) انظر «الرد على المنطقيين» (ص 445، 446).

لبعض المعلومات وبألا عليه، وهكذا تجد مَنْ عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه، فيبقى بجهله نافعاً لما لا يعلمه، وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه غير علم أكثر من ضلالهم فيما صدّقوا به وأثبتوه، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: 39].

وهذا لأنّ الغالب على آدميين صحّة الحسّ والعقل، فإذا أثبتوا شيئاً وصدّقوا به، كان حقّاً، بخلاف ما نفوه، فإنّ غالبهم أو كثيراً منهم ينفون ما لا يعلمون، ويكذبون بما لم يحيطوا به علماً.

ويتفرّع على هذا الأصل الباطل: الجهل بالالهيّات وبما جاء به الرُّسل، والجهل بالأُمور الكليّة المحيطة بالموجودات، وبهذا ضلّ زنادقة الفلاسفة وغيرهم، كما أنكروا الجنّ والملائكة وأُمور الغيب؛ إذ لم تدخل تحت علومهم القصيرة، فجحدوها، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجاءتهم الرُّسل بالبيّنات والبراهين، ففرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون. انتهى (1).

❁ الوجه الثامن والعشرون: [طرق العلوم اليقينية كثيرة]:

أن يقال لهؤلاء المُلحدين المنكرين لأُمور الغيب التي أخبر الله بها ورسوله: لم أنكرتموها؟

فيجيبون بأنّها لم تدخل تحت علومنا التي بنيناها على إدراكات الحواسّ والتّجارب. فيقال لهم: قدّروا أنّها لم تدخل في ذلك، فإنّ طرق العلوم اليقينيّة

(1) «مجموع الفتاوى» (17/335، 336).

كثيرة، وأكثرها لا تدخل تحت إدراكاتكم، فإن إدراكاتكم قاصرة حتى باعترافكم، فإنكم تعترفون أن مدركاتكم خاصة ببعض المواد الأرضية وأسبابها وعللها، ومع ذلك لم تدركوها كلها باعترافكم وأعمالكم، فإنكم لا تزالون تبحثون، وتعملون التجارب التي تنجح مرة، وتخفق مرّات.

فإذا كانت هذه حالكم في الأسباب والمواد الأرضية التي يشترك بنو آدم في إدراكها، ويفترقون في مقدار الإدراك، فكيف تنفون بقيّة العوالم: عوالم السموات، وعوالم الغيب، وما هو أعظم من ذلك من أوصاف ربّ العزة وعظمته، وأنتم لم يتّصل شيء من علّومكم بذلك، فإنّ هذا النفي باطل بإجماع العقلاء، وإنّما هذا مكابرة.

وإذا قلتم - وأنتم تقولون بلسان المقال ولسان الحال -: إن أئمتكم ورؤساءكم قالوا ذلك وأنكروه.

فيقال أولاً: رؤساؤكم قد تضاربت أقوالهم، وتناقضت مقالاتهم، ولم يثبتوا على مقالة واحدة، ولم يزالوا في خبط واختلاط، وإحداث نظريات ونقضها، واتفاق وافتراق.

ولو قدر على وجه الفرض اتّفاقهم على الإنكار، فكيف يؤخذ بأقوال من لم يعرف صدقهم، بل عرف كذبهم وخطوهم في ذلك، ولا يؤخذ بأقوال الرسل من أولهم إلى آخرهم الذين ثبت صدقهم بالبراهين اليقينية والآيات القواطع، وثبت علمهم الذي تتضاءل معه علوم جميع البشر، ولم يصل أحد إلى العلم الصحيح والهداية إلا من جهتهم - وهم متفقون على ذلك - والكتب السماوية المنزلة عليهم، وأتباعهم الذين عرفت هدايتهم ودرايتهم، وعرف أن الواحد من أئمة هؤلاء الهداة يقاوم الفلاسفة من أولهم إلى آخرهم، فقد اتفقت الرسل والأنبياء

وأتباعهم وأدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة التي لم تُغيّرْها العقائد الفاسدة على الإيمان بالله وكتبه ورُسله واليوم الآخر، وجميع ما يجب الإيمان به من الغيوب.

وهؤلاء الملحّدون ليس معهم نقل ولا عقل صحيح، إنّما معهم ظنونٌ كاذبةٌ، وآراءٌ خاطئةٌ، ونظرياتٌ مضطربةٌ، وتقليدٌ أعمى للضالّين الحائرين: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6]، ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ آفَاكٍ أَثِمًا﴾ [يوسف: 7]، ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: 7، 8]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96، 97].

❁ الوجه التاسع والعشرون: [آيات الرسل حسيّة شاهدها الأمم]:

إنّ هؤلاء الملحّدين كاذبون في دَعْوَاهُمْ إثبات كلّ ما دخل تحت حواسّهم، فإنّه قد تواترت آيات الرُّسل، وشاهدها الخلق العظيم، واعترفوا وخضعوا لها، وشاهدوا ما فعّله الله في الأرض من نصر الرُّسل وأتباعهم ونجاتهم، وإهلاك الأمم المُكذّبة، وهذه وقائعٌ كثيرةٌ لا يمكن إحصاؤها، ولم يشتهر ويتواتر شيءٌ كاشتهاها وتواترها.

ولم يعترف البشر بشيءٍ من الأشياء أعظم من اعترافهم بها؛ لأنّهم شاهدها رأي عَيْنٍ، ونقلتها الأمم قرناً بعد قرنٍ، وهؤلاء يُكابرون ويُبَاهَتون ويَجْحَدون ما اعترفت به الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم، فهم تابعون لأئمّتهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

❀ الوجه الثالثون: [الطبيعة لا شعور لها، فكيف تكون خالقة؟!]:

إِنَّكَ إِذَا تَصَوَّرْتَ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ الْمَادِّيِّينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْحَوَادِثَ كُلَّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا: حَوَادِثُ الطَّبِيعَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ لَا شُعُورَ لَهَا بِمَا يَصْدُرُ مِنْهَا مِنْ أَفْعَالٍ، وَإِنَّمَا هِيَ آلَةٌ مُحْضَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ تَصْدُرُ عَنْهَا الْأَفْعَالُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ، وَفِي نِهَايَةِ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَفِي غَايَةِ الْإِرْتِبَاطِ الْوَثِيقِ الَّذِي اسْتَقَامَتْ بِهِ الْأُمُورُ، وَصَلَحَتْ الْأَحْوَالُ مِنْ دُونِ مُدَبِّرٍ لَهَا، وَلَا خَالِقٍ، وَلَا فَاعِلٍ.

فَمَنْ تَصَوَّرَ هَذَا الْقَوْلَ حَقَّ تَصَوُّرِهِ؛ عَرَفَ أَنَّهُ قَوْلٌ يُشَبِّهُ أَقْوَالَ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ سَلَبَتْ عُقُولُهُمْ، وَهَذُوا بِمَا لَا شُعُورَ لَهُمْ بِهِ، وَعَرَفَ كُلُّ عَاقِلٍ بَصِيرٍ أَنَّ نَفْسَ مَقَالَتِهِمْ تَدُلُّ أَكْبَرَ دَلَالَةٍ عَلَى كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ، فَضْلًا عَنْ دَلَالَاتِ الْبِرَاهِينِ النَّقْلِيَّةِ وَالْقَوَاطِعِ الْعَقْلِيَّةِ، وَمَا فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ وَتَفَرُّدِهِ بِكُلِّ كَمَالٍ، وَأَنَّهُ الْفَاعِلُ لِمَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ مُبْدِعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُودِعُ فِيهَا مِنْ بَدَائِعِ حِكْمَتِهِ، وَأَسْرَارِ حَمْدِهِ، وَسَعَةِ عَظَمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَعُمُومِ بَرِّهِ وَفَضْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مَوْجُودٌ وَلَا حَادِثٌ عَنْ قُدْرَتِهِ وَمَشِئَتِهِ، وَأَنَّ رُسُلَهُ صَادِقُونَ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ وَشَرَعُوهُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَكْبَرِ النِّعَمِ، وَهُوَ الْإِعْتِرَافُ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَالْعَافِيَةُ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ الْمَصَائِبِ عَلَى الْعَبْدِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ كُلِّ مُلْحِدٍ مَارِقٍ مِنَ الْعَقْلِ وَالِدِّينِ.

❁ الوجه الحادي والثلاثون: [علوم الملاحدة عرضة للتغيير]:

أَنْ يُقَالَ لِرُؤَسَاءِ الْمُلْحِدِينَ وَأَذْكَائِهِمْ فَضْلًا عَنْ عَوَامِّهِمْ وَمُقَلِّدِيهِمْ: أَنْتُمْ لَا تَزَالُونَ فِي عُلُومِكُمُ الَّتِي افْتَخَرْتُمْ بِهَا، لَا تَزَالُونَ تُحَدِّثُونَ نَظَرِيَّاتٍ تَتَّفَقُ عَلَيْهَا أَرَؤُكُمْ أَوْ أَكْثَرُهَا، وَتُقَرَّرُونَهَا، وَتَعْتَقِدُونَهَا، وَتَجْزُمُونَ بِصِدْقِهَا، ثُمَّ مَعَ تَكَرُّرِ أَفْكَارِكُمْ وَأَنْظَارِكُمْ عَلَيْهَا تَشْكُونُ فِيهَا، وَرَبِّمَا تَجْزُمُونَ بِبَطْلَانِهَا، وَتُحَدِّثُونَ مَا يَضَادُّهَا مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي بِاتِّفَاقِكُمْ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ تَقْبَلُ التَّحْلِيلَ وَالشَّكَّ وَالْقَدَحَ فِيهَا، وَهِيَ عُرْضَةٌ لِلَاضْمَحَالِ.

وَكَمْ قَدْ أَبْطَلْتُمْ مِنْهَا مَا كُنْتُمْ تَرَوْنَهُ حَقًّا، وَكَمْ كَذَّبْتُمْ مَا كُنْتُمْ بِهِ مُصَدِّقِينَ، فَعُلُومُكُمْ الْعَالِيَةُ عِنْدَكُمْ وَهَذِهِ حَالُهَا وَمَآلُهَا، كَيْفَ يَسُوعُ مَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْقُولٍ أَنْ يَجْعَلَهَا مَعَارِضَةً لِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْحَقَائِقِ الصَّادِقَةِ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهَا الْكُتُبُ، وَآيَقَنَ بِهَا الْأَئِمَّةُ الْفُضَّلَاءُ وَالْهُدَاةُ الْمُهِتَدُونَ.

❁ الوجه الثاني والثلاثون: [إنكار ما جاءت به الرسل مكابرة]:

قَدْ تَقَرَّرَ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ -سِوَى هَذِهِ الطَّائِفَةِ الَّتِي كَابَرَتْ وَبَاهَتَتْ- صِدْقُ الرُّسُلِ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ وَالْأَوْصَافِ الرَّفِيعَةِ، وَبِمَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ وَالدُّنْيَا، وَهَدَى بِهِ الْعِبَادَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَصَلَاحٍ وَفَلَاحٍ خَاصٍّ وَعَامٍّ، عَاجِلٍ وَآجِلٍ، وَأَيَّدَهُمُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْبُرَاهِينِ الْفَاطِعَاتِ الَّتِي تَوَاتَرَتْ تَوَاتُرًا لَمْ يُقَارَبْهُ شَيْءٌ مِنَ الْمُتَوَاتِرَاتِ، حَتَّى تَنَاقَلَتْهَا الْأُمَمُ وَالْقُرُونُ، وَصَارَتْ فِي مُقَدِّمَةِ الْحَقَائِقِ، وَفِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الصِّدْقِ،

وخصوصاً نبّيهم وسيّدهم مُحَمَّد ﷺ.

فإنّ جميع الخلق شهدوا بصدق ما جاء به، واعترفوا به، وخضعوا -أولياؤه وأعداؤه- ولو لم يجرى إلّا بهذا القرآن الذي تحدّى الله به الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة لبلاغته العظيمة، وأسلوبه الجميل الجليل، وأحكامه التي هي أحسن الأحكام، وإخباره عن الغيوب الماضية والمستقبلية المتعلقة بالخلق، والمتعلقة بالخالق.

فمن عرّف شيئاً من أحوال الرُّسل وصدّقهم وأخبارهم وأحكامهم؛ عرف أنّ من أنكر ما جاءت به الرُّسل قد كابرُوا المحسوسات، وباهتوا المعقولات، وعاندوا العلوم الصحيحة، وردّوا المعارف اليقينية، وأنهم -بلا شك- معاندون للحقّ، أو مُقلّدون للمعاندين تقليداً أعمى، فهم كما قال الله عن أئمتهم: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٤) [النمل: 14].

فإذا لم يؤمنوا ويصدقوا بما جاءت به الرُّسل ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) [الجاثية: 6].

أمّا أولو الألباب، فقد قال الله عنهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ [آل عمران: 193]، ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣) [آل عمران: 53].

الوجه الثالث والثلاثون: [شهود العقول بمحاسن الشريعة]:

أن يُقال لهؤلاء الملاحدة: ما جاء به مُحَمَّد ﷺ من الدين والشرع وحي من

الله، جاء على يد الرُّسُولَيْن (جِبْرِيل ومُحَمَّد ﷺ) ⁽¹⁾، وهو مُؤَيَّدُ بِشَهَادَةِ الآيَاتِ والبراهين القاطعة.

والعُقُول تهتدي به وتسترشد إلى جميع المطالب العالية، فتشهد بكمال حسنه، وتعرف بحاجتها وضرورتها العظيمة إلى إرشاده، وتستنير به، وتعرف أنه لا سبيل لها إلى الوصول إلى تفاصيل ما أخبر به من الغيوب المفصلة، وأنه ليس في علومها ما يدل على ذلك، فسلمت لما جاء به الوحي والشرع، ولم تعبأ بعقول بنييت على الشبه والخيلات، فإنها لو جمعت حكم جميع الأمم، ونسبت إليها؛ لم يكن لها إليها نسبة.

وهذه الشريعة متضمنة لأعلى المطالب بأقرب الطرق وأتم البيان، وهي متكفلة بتعريف الخليفة ربها وفاطرها المحسن إليها بأنواع الإحسان بأسمائه وصفاته وأفعاله، وتعريف الطريق الموصل إلى رضاه، وإبطال ما يصاد ذلك وينافيه، فابتدأها من الله، وانتهأها إليه سالمةً من هذيانات الملحدين، وافتراء المفتريين.

وقد أكمل الله الدين لنبيه وأمته، فلم يُخَوِّجْهُ هو ولا أمته إلى عقل ونقل سواه؛ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

ولا يمكن أن يُعَارِضَهُ عَقْلٌ صَحِيحٌ، ولا علمٌ صادقٌ، ومن تأمل ما خالف

(1) جِبْرِيل ﷺ نَزَلَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَجِبْرِيلُ ﷺ رَسُولُ سَمَاوِيٍّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ رَسُولُ أَرْضِيٍّ؛ قَالَ ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٤)﴾

النُّصُوص الصَّحِيحَة الصَّريحَة، وجدها شُبُهَاتٍ فاسدة، يُعَلِّمُ بالعقل بطلانها وثُبُوت نقيضها.

والرُّسُل -صلوات الله وسلامه عليهم- تُخَبِّرُ بِمَا تَعْرِفُهُ الْعُقُولُ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، أَوْ تَعْرِفُهُ جُمْلَةً، وَلَا تَهْتَدِي إِلَى تَفْصِيلِهِ، أَوْ تُخَبِّرُ بِأُمُورٍ لَا تَهْتَدِي إِلَيْهَا الْعُقُولُ بِمُجَرَّدِهَا؛ لَا جُمْلَةً وَلَا تَفْصِيلاً، وَمُحَالٌّ أَنْ تُخَبِّرَ بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ، وَهَذَا يَعْرِفُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ خَبَرَةٌ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَخَبَرَةٌ بِمَقَالَاتِ الْأُمَمِ.

وَقَدْ تَتَبَعَ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ وَأَسَاطِينُ الْحُكَمَاءِ وَفُحُولُ أَهْلِ النَّظَرِ ذَلِكَ، فَوَجَدُوهُ كَذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْحَقَائِقِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ، وَبَرَّهْنُوا أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَهَا فَهُوَ ضَلَالَاتٌ وَجَهَالَاتٌ وَخِيَالَاتٌ، حَتَّى بِاعْتِرَافِ مَنْ أَنْصَفَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ فَضْلاً عَنْ أُولِي الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ، وَأَهْلِ الْعُقُولِ الْوَافِيَةِ الْمُعْتَزِيَةِ بِالْوَحْيِ وَالْهُدَايَةِ النَّبَوِيَّةِ.

فَإِنَّهُمْ عَلِمُوا عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ جَمِيعَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ وَمِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْقُدْرِيَّةِ وَالْجَزَائِيَّةِ فَهُوَ حَقٌّ الْيَقِينِ، فَتَيَقَّنُوهُ بِقُلُوبِهِمْ، وَشَهِدَتْ بِهِ أَلْسِنَتُهُمْ، وَهَدَّوْا بِهِ الْخَلِيقَةَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١٨] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٥٠] [المائدة: 50]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [٦] [سبا: 6]، ﴿مَنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنْكَ الْغَدِيرُ﴾ [٣٣] ﴿إِنَّا مَنَزَلْنَاهُ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [٣٤] وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [٣٥] وَإِلَى مَدِينِكَ أَخَاهُمْ ﴿

[مريم: 58]، وَلَمَّا ذَكَرَ صِفَاتِ أُولَى الْأَبَابِ قَالَ عَنْهُمْ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ الآية [آل عمران: 193].

❀ الوجه الرابع والثلاثون: [أصل بلاء الملحدين]:

إِنَّ أَصْلَ بِلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُلْحِدِينَ قِيَاسُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ بِالْمَخْلُوقِ النَّاقِصِ الْحَقِيرِ، وَلَمْ يَعْتَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ لَهُ الْمَثَلَ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّ لَهُ الْعِظَمَةَ كُلَّهَا، وَالْكَبْرِيَاءَ كُلَّهُ، وَالْمَجْدَ وَالْحَمْدَ وَالْجَلَالَ، وَأَنَّ مَا لِلخَلْقِ مِنْ أَوْلَاهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ مِنْ قُوَّةٍ وَعِظَمَةٍ وَأَوْصَافٍ فَإِنَّهَا تَضْمَحَلُّ غَايَةً الْاضْمَحْلَالَ، وَلَا يَبْقَى لَهَا نِسْبَةٌ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ إِذَا نُسِبَتْ إِلَى عِظَمَةِ اللَّهِ وَجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ.

وإِلَّا فَلَوْ عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لَجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ (أَعْيَانِهَا وَأَوْصَافِهَا وَأَفْعَالِهَا)، وَمَنْ سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، وَأَنَّهُ مَالِكُ الْمُلْكِ الْمُطْلَقِ، وَمَنْ سِوَاهُ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، وَأَنَّهُ الْعَلِيمُ: الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، الرَّحِيمُ: الَّذِي وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، الْقَدِيرُ: الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، الْعَزِيزُ: الَّذِي عَلَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَقَهَرَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا، وَدَانَتْ لِعِزَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ الْأَوَّلُ: الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، الْآخِرُ: الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، الظَّاهِرُ: الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، الْبَاطِنُ: الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، الْحَكِيمُ فِي كُلِّ مَا خَلَقَهُ، وَحَكَمَ بِهِ شَرْعًا وَقَدَرًا وَجَزَاءً، إِلَى آخِرِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مَعَارِفُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعُهُمْ مِنْ أَوْصَافِهِ، فَلَا يُخْصِي أَحَدٌ ثَنَاءً عَلَيْهِ، لَوْ عَلِمُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَعَرَفُوا أَنَّ قَوْلَهُمْ وَاعْتِقَادَهُمْ أَبْطُلَ

الباطل، وأُشنع الكذب، وأعظم الجراءة على الله والمُكابرة لآياته وبراهينه التي خضعت لها الخليفة: ﴿سُبِّحْ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٤﴾ [الإسراء: 44]، ﴿...﴾ [مريم: 93-95].

فَهُؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ لَمَّا لَمْ تَصِلْ مَعَارِفَهُمُ الصَّيِّلَةَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَحَصَرُوهَا فِي بَعْضِ الْأَسْبَابِ، وَلَمْ تَرْتَقِ إِلَى مُسَبِّبِ الْأَسْبَابِ، وَلَمْ يَصْلُوا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَى خَالِقِهَا - ظَنُّوا أَنَّ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ هُوَ غَايَةُ الْعِلْمِ، وَنَهَايَةُ الْمَعْرِفَةِ؛ حَهْلًا وَضَلَالًا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ ظُلْمًا وَعِنَادًا.

فيا أيُّها المؤمن بالله؛ احمَد الله على هذه النِّعْمَةِ الَّتِي هي أكبرُ النِّعَمِ،
والسَّلامَةِ من عُقُوبَةِ الإلحاد الَّتِي هي أكبرُ النِّقَمِ.

❁ الوجه الخامس والثلاثون: [حصر الملاحدة مداركهم في الحياة

الدنيا]:

إِنَّ هَؤُلَاءِ الدَّهْرِيِّينَ لَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا، نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ، وَمَا هِيَ إِلَّا الطَّبِيعَةُ تَتَوَلَّدُ عَنْهَا الْمَوْجُودَاتُ وَالْحَوَادِثُ، حَصَرُوا مَدَارِكَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَأَدْرَكُوا مِنْهَا مَا أَدْرَكُوا، وَجَحَدُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ، وَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الْغُيُوبِ وَالْأَحْكَامِ، فَضَاقَتْ دَائِرَةُ عُلُومِ هَؤُلَاءِ الْمَلْحِدِينَ، وَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكِبرِ وَالسُّخْرِيَةِ بِعُلُومِ الرُّسُلِ، وَسَاءَتْ قُصُودُهُمْ، وَخَتَمَ اللَّهُ عَلَى مَدَارِكِهِمْ -الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ- فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا

وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿ الآية [الأحقاف: 26]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿٥٦﴾ [غافر: 56].

فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذَا الْكِبَرِ الَّذِي هَبَطَ بِصَاحِبِهِ إِلَى هَذِهِ الدَّرَكَاتِ، وَمَنَعَهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْعُلُومِ النَّافِعَةِ وَالسَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ، وَحَسَّنَ لَهُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ النَّاقِصَةِ، وَالْأَعْمَالِ الْقِبَاحِ.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعلوماتُ المُعَايَنَةُ الَّتِي لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِالْخَبَرِ أَضْعَافٌ أَضْعَافُ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي تُدْرِكُ بِالْحَسِّ وَالْعَقْلِ، بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهَا بَوَاحٍ مِنَ الْوَجْهِ، وَلِهَذَا كَانَ إِدْرَاكُ السَّمْعِ أَعَمَّ وَأَشْمَلُ مِنْ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ، فَإِنَّهُ يُدْرِكُ الْأُمُورَ الْمَعْدُومَةَ وَالْمَوْجُودَةَ وَالْحَاضِرَةَ وَالْغَائِبَةَ، وَالْمَعْلُومَاتِ الَّتِي لَا تُدْرِكُ بِالْحَسِّ.

وَالْأُمُورَ الْغَائِبَةَ عَنِ الْحَسِّ نِسْبَةً الْمَحْسُوسِ إِلَيْهَا كَقَطْرَةٍ مِنْ بَحْرٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْعِلْمِ بِهَا إِلَّا بِالْخَبَرِ الصَّادِقِ.

وَقَدْ اصْطَفَى اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَنْبِيَاءَ، أَنْبَاءَهُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ بِمَا يَشَاءُ، وَأَطْلَعَهُمْ مِنْهَا عَلَى مَا لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ يُمْكِنُ مَعْرِفَتُهُ بِدُونِ خَبَرِهِمْ، بَلْ وَلَا أَكْثَرُهُ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْمَلُ الْأُمَمِ عِلْمًا: أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ أَحْذَقَ مِنْهُمْ فِي عِلْمِ النُّجُومِ وَالْهَنْدَسَةِ، وَعِلْمِ الْكَمِّ الْمُتَّصِلِ وَالْمُنْفَصِلِ، وَنَحْوِهَا مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي لَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُّوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ

العلم⁽¹⁾، وآثروها على علوم الرُّسل، وهي كما قال الواقف على نهايتها: ظنونٌ كاذبةٌ، وعلومٌ غير نافعةٍ.

فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعَتْ فَنَفَعَهَا بالنسبة إلى علوم الأنبياء كنفع العيش العاجل بالنسبة إلى الآخرة ودوامها، فليس العلم في الحقيقة إلا ما أَخْبَرَتْ به الرُّسل عن الله طلباً وخبراً، فهو العلم المُرَكَّب للنفوس، المُكْمَل للفطر، والمُصَحَّح للعقول، الَّذِي خَصَّه الله باسم «العلم»، وسمَّى ما عَارَضَه: «ظناً» لا يُغني من الحق شيئاً، و«خَرَصاً»، و«كذباً»⁽²⁾.

وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم، رأيته كله خرصاً، وعلمت أنهم هم الخراصون، وأن العلم في الحقيقة: ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حُجَّتَه، وهَدَى به أنبياءه وأتباعهم، وأثنى عليهم به، وذكر الآيات الدالة على هذا⁽³⁾. انتهى.

(1) قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّحَ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هَٰذَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: 82-85].

(2) قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 36].

وقال ﷻ: ﴿إِلَّا إِنَّا لِلَّهِ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءُ إِنْ يَسْتَعِزُّوكَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 66].

وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَادِي عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا بَهَا كَذِبُ بُوتٍ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون: 105].

(3) انظر «الصواعق المرسلة» (3/ 873-879).

❁ الوجه السادس والثلاثون: [قوة ارتباط أدلة الدين بمدلولاتها]:

إِنَّ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَمُعْجَزَاتِهِمُ الَّتِي شَاهَدَهَا الْخَلْقُ الْعَظِيمُ، وَتَنَاقَلَتْهَا الْقُرُونُ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهَا الدَّلَالَاتُ الْمُتَنَوِّعَةُ (دلالة العقل، ودلالة الحس)، واضطرار الخلق الذين شاهدوها أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ وَبَرَاهِينِهِ، تَهْدِمُ الْأَصْلَ الَّذِي أَصْلُهُ الْمَلَا حِدَةٌ حَيْثُ لَمْ يُثْبِتُوا إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَسُّ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْمَحْسُوسَاتِ إِذَا نُسِبَتْ لآيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَمُعْجَزَاتِهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهَا إِلَيْهَا نِسَبَةٌ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، فَضْلًا عَنْ بَقِيَّةِ الْأَسْتِدْلالاتِ عَلَيْهَا، فَهِيَ مِنْ أَقْوَى الطَّرِيقِ وَأَوْضَحِهَا وَأَدْلَاهَا عَلَى الصَّانِعِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وارتباط أدلة هذه الطَّرِيقِ بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصَّريحة بمدلولاتها، فَإِنَّهَا جَمَعَتْ بَيْنَ دَلَالَةِ الْحَسِّ وَدَلَالَةِ الْعَقْلِ.

ودلالتها ضرورية بنفسها؛ ولهذا يُسَمِّيها اللَّهُ «آيَاتِ بَيِّنَاتٍ»⁽¹⁾؛ فَإِنَّ انْقِلَابَ عَصَا تَقْلُهَا الْيَدُ ثُعْبَانًا عَظِيمًا يَبْتَلَعُ مَا يَمُرُّ بِهِ، ثُمَّ يَعُودُ عَصَى كَمَا كَانَتْ⁽²⁾، وكذلك الْيَدُ⁽³⁾، وفلق البحر طُرُقًا والماء قائم بينهما كالحيطان⁽¹⁾، وَتَنَقَّى الْجَبَلَ

(1) قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُتُبٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زَنَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(١٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْدُتْ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ بِأَيْدِينَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾
[العنكبوت: 48، 49].

(2) قال الله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ [الأعراف: 117، 118].

(3) وقال الله ﷻ: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾^(٢٠) قَالَ حُذَّهَا وَلَا تَخَفْ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا

من موضعه، ورفعه على قَدْر العَسْكَر العظيم فوق رؤوسهم⁽²⁾، وضرب حَجَر مُربع بِعَصَا، فَتَسِيل منه اثنتا عشرة عَيْنًا تكفي أُمَّةً عَظِيمَةً⁽³⁾، وإخراج النَّاقَةِ لِصَالِح⁽⁴⁾، وتصوير طائرٍ من طينٍ، ثُمَّ يَنْفَخ فيه النَّبِيُّ؛ فَيَنْقَلِب طَائِرًا ذَا لَحْمٍ ورِيشٍ وَأَجْنِحَةٍ يَطِير بِمَشْهَدٍ من النَّاسِ⁽⁵⁾، وإنزال العُقُوبَات المُتَوَّعَةِ على المُكَذِّبِينَ لِلأنبياء⁽⁶⁾، ثُمَّ نَجَاة النَّبِيِّ وَمَنْ مَعَهُ من المؤمنين⁽⁷⁾، وإيماء الرِّسُول

=

الأُولَى (١) وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) ﴿طه: 20-22﴾.

(1) قال الله ﷻ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (١٣)﴾ [الشعراء: 63].

(2) قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾ [الأعراف: 171].

(3) قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾ [البقرة: 60].

(4) قال الله ﷻ: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسِوْهُ فَيَاخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٢)﴾ [الأعراف: 73].

(5) قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نَعَمْتَ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ إِذْ أَيْدَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْبَابِثِينَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبِيتُ (١١٠)﴾ [المائدة: 110].

(6) قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت: 40].

(7) قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (١٢)﴾ [يونس: 103].

إلى القمر، فَيَنْشَقُّ نِصْفَيْنِ بَحِثَ رَأَى الْحَاضِرُ وَالْغَائِبُ وَيُخْبِرُ بِهِ، كَمَا يَرَاهُ الْحَاضِرُونَ⁽¹⁾، وكذا بقية الآيات الَّتِي شَاهَدَهَا النَّاسُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ مُتَنَوِّعَةٌ جَدًّا، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَدَلَّةِ عَلَى الصَّانِعِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وهذه مِنْ طُرُقِ الْقُرْآنِ الَّتِي أَرَشَدَ اللَّهُ إِلَيْهَا عِبَادَهُ، وَذَلَّلَهُمْ بِهَا، كَمَا ذَلَّلَهُمْ بِمَا يُشَاهَدُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَطَرِ وَالسَّحَابِ وَالْحَوَادِثِ الَّتِي فِي الْجَوِّ، وَأَحْوَالِ الْعُلُويَّاتِ: مِنَ السَّمَاءِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَأَحْوَالِ النُّطْفَةِ وَتَقَلُّبِهَا طَبَقًا بَعْدَ طَبَقٍ. انتهى⁽²⁾.

وفي هذا إِبْطَالُ لِقَوْلِ مَنْ يَسْتَهِينُ بِمَعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَيُجَارِي الْمُلْحِدِينَ فِي تَحْلِيلِهَا تَحْلِيلًا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ بُطْلَانَهُ، وَأَنَّهُ قَدْخٌ فِي الضَّرُورِيَّاتِ وَالْمَحْسُوسَاتِ، وَلَكِنَّ التَّقْلِيدَ الْأَعْمَى وَالْخُضُوعَ لِلْمَلَا حِدَةٍ، وَمُؤَافَقَتَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَصُولِهِمُ الْبَاطِلَةَ أَوْصَلَهُمْ إِلَى حَالَةِ الْإِسْتِهَانَةِ بِآيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَخَوَارِقِ مَا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ وَالْخَبَرِ وَالْمَشَاهِدَةِ، وَمَنْقُولٌ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ مِنَ الْمُتَوَاتِرَاتِ.

وَاللَّهُ تَعَالَى يُنَوِّعُ آيَاتِهِ، وَيَجْعَلُهَا فِي كُلِّ فَنٍّ وَتَصْرِيفٍ؛ لِتَقُومَ الشَّوَاهِدُ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ؛ لِيَحْيَا مَنْ حَيٍّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلِيَعْلَمَ الْعِبَادُ أَنَّ قُدْرَتَهُ تَعَالَى يُصَرِّفُ بِهَا الْأُمُورَ بِأَسْبَابٍ يَعْرِفُهَا الْعِبَادُ، وَأَسْبَابٍ لَا يَعْرِفُونَ وَجْهَهَا، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَ نَتِيجَتَهَا وَفَائِدَتَهَا الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ، وَكَذِبِ

(1) أخرج البخاري (4864)، ومسلم (2800) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أَنَشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِرْقَتَيْنِ؛ فِرْقَةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةٌ دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُوا».

(2) «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة» (3/ 1197، 1198).

أعدائه، وبُطلان قَوْلِهِم الَّذِي خالفوا فيه الرُّسُل.
والحمد لله، وسلامٌ على عباده الَّذِينَ اصْطَفَى.

❁ الوجه السابع والثلاثون: [الله ﷻ واجب الوجود]:

أَنْ يُقَالَ لَهُوْلَاءِ الْمُلْحِدِينَ الدَّهْرِيِّينَ مَا قَالَتْهُ الرُّسُلُ لِأَسْلَافِهِمْ: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 10].

فإنَّ الله تعالى وجودُهُ أَظْهَرُ المَوْجُودَاتِ، وَهُوَ وَاجِبُ الوجودِ، وَغَيْرُهُ وَجِدٌ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَهُوَ تَعَالَى فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكُلُّ المَوْجُودَاتِ (الحاضرة والسَّابِقَةِ وَاللَّاحِقَةِ)، وَجَمِيعُ الحَوَادِثِ فِي جَمِيعِ الأَوَاقَاتِ، كُلُّهَا بِخَلْقِهِ وَتَسْخِيرِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَصْرِيفِهِ، أَوْجَدَهَا بَعْدَ الْعَدَمِ، وَأَمَدَّهَا بِكُلِّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَحَفِظَهَا مِنَ الزَّوَالِ وَالِاضْمِحْلالِ، وَهُوَ يُحْيِيهَا وَيُمِيتُهَا، وَيُعِدُّهَا وَيُبْقِيهَا، وَيَتَصَرَّفُ فِيهَا بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ وَبَدِيعِ الْعِنَايَةِ.

قَدْ شَهِدَتْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ جَمِيعُ المَوْجُودَاتِ، وَخَضَعَتْ لِعَظَمَتِهِ جَمِيعُ الكَائِنَاتِ، وَافْتَقَرَتْ إِلَيْهِ جَمِيعُ الْبَرِيَّاتِ فِي كُلِّ شَأْنِهَا، ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢٩) [الرحمن: 29]؛ شُؤْنٌ يُبْدِيهَا، وَيَبْتَدِيهَا⁽¹⁾.

(1) هكذا في جميع النسخ التي وَفَّقْتُ عَلَيْهَا، وَلَعَلَّهَا: «شُؤْنٌ يُبْدِيهَا، وَلَا يَبْتَدِيهَا».

كما جاء في «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي: «قال الحسين بن الفضل، وقد سأله عبد الله بن طاهر عن قوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢٩) - وقد صَحَّ أَنَّ الْقَلَمَ جَفَّ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ فقال: شُؤْنٌ يُبْدِيهَا، لَا شُؤْنٌ يَبْتَدِيهَا». اهـ.

وقال النفراوي في «الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني» (1/ 199): «شُؤْنٌ يُبْدِيهَا - أي: يُظْهِرُهَا - لَا شُؤْنٌ يَبْتَدِيهَا، أي: يُقَدِّرُهَا، أي: لَأَنَّ التَّقْدِيرَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ». اهـ.

وقد قامت البراهين القواطع التي لا تعدُّ ولا تُحصى على هذا الأمر، وشهدت به الكتب والرُّسل وأتباعهم، وأولو العقول الصحيحة والفطر المُستقيمة، لا يمكن أحداً له مُسكَّةٌ من عقل أن ينكر هذا، إلَّا هؤلاء المُلحدون الذين فسدت عقولهم، ومَرَجَت أخلاقهم⁽¹⁾، واقتدوا بكلِّ شيطانٍ مريدٍ؛ كَفِرَعُونَ وأشباهه، الذي قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: 102]، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

وحيث خَاطَبَ موسى ﷺ حين أَمَرَهُ بالإيمان: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ [٤٩] قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ [طه: 49، 50].

فاستدلَّ عليه بجميع الكون؛ ناطقه وصامته، وأنه الذي انفردَ بِخَلْقِهِ، لَمْ يُشَارِكْهُ فِي ذَلِكَ مُشَارِكٌ، وَهَدَى كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ الْمَشَاهِدَةِ، فلهذا البرهان جميعُ العقلاء يعترفون به، ولا يُنكره إلَّا كلُّ مُكَابِرٍ مُبَاهِتٍ؛ مثل فرعون وأئمة هؤلاء، ولهذا لما جاءه موسى وخاطبه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23] إنكاراً له! قَالَ مُوسَى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 28].

فكلُّ عاقل لا بُدَّ أن يعترف به، ومن لم يعترف به، فإنه إمَّا مجنونٌ، أو مُعَانِدٌ مُبَاهِتٌ، أو ضالٌّ مُقَلِّدٌ تَقْلِيدًا أَعْمَى؛ فقال فرعون مُموهاً على أهل مجلسه: أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ مُوسَى؟ فقال موسى: ﴿رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٢٦] إنكاراً

(1) أي: فسدت واختلطت.

عليهم أَنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَمْرًا لَمْ يَزَالُوا وَلَا يَزَالُونَ إِلَيْهِ مُضْطَرِّينَ مُفْتَقِرِينَ كُلَّ وَقْتٍ، وهو رُبُوبِيَّةُ اللَّهِ لَهُمْ وَلَا بَائِهِمُ الْأَوَّلِينَ الَّتِي لَا يُمْكِنُ إنْكَارُهَا، فهو الَّذِي رَبَّاهُمْ بِخَلْقِهِ وَنِعَمِهِ صَغَارًا وَكِبَارًا، هُمْ وَأُصُولُهُمْ وَفُرُوعُهُمْ وَسَائِرُ الْخَلْقِ، وَلَكِنَّهُمْ بَاهْتَوُا، وَمِنْ مُبَاهِتَتِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ: رَمِيَهُ لِمُوسَى بِالْجُنُونِ، وهو يعلم أَنَّهُ أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلًا، وهو الَّذِي أَقَامَهُ وَأَقْعَدَهُ وَأَخْرَجَهُ فِي أَحْوَالِهِ كُلِّهَا؛ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) [الشعراء: 27].

فَلَمَّا رَأَاهُ يُكَابِرُ وَيَجْحَدُ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ لِلْخَلْقِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ الْمُكَابَرَةُ فِيهَا، قَالَ لَهُ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠) [الشعراء: 30] ظاهرٍ واضحٍ قوِيٍّ، دَالٌّ عَلَى صِدْقِي وَصِحَّةِ مَا جِئْتُ بِهِ، وَأَنَّ الْجَا حِدِينَ هُمْ الْمُبْطَلُونَ، فَذَكَرَ الْآيَاتِ، وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ، وَكَيْفَ اعْتَرَفَ السَّحَرَةُ كُلُّهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَثَرُ فِيهِمْ، وَآمَنُوا الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الصَّادِرَ عَنْ قُوَّةٍ وَبَصِيرَةٍ وَخَبْرَةٍ تَامَّةٍ، وَلَمْ يُبَالُوا بِالْمُعَارَضَاتِ، وَمَا أَصَابَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَظَهَرَ الْحَقُّ، وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁽¹⁾.
فهذه في الحقيقة حالة هؤلاء المُلْحِدِينَ مع جميع الرُّسُلِ، وَلَقَدْ قَصَّ اللَّهُ

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١٠٢) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١٠٣) قَالُوا يَمْوِسَّى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَلِئِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١٠٤) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ (١٠٥) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١٠٦) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٧) فَعُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ (١٠٨) وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٠٩) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ مُوسَى وَهَارُونَ (١١٠) قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَئِيْخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١١١) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١١٢) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١١٣) وَمَا نُنْفِمْ مِنْهَا إِلَّا آتَاءَ مَتَابِعَاتٍ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَهُ تَأْتِي رَبَّنَا

أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١١٤) [الأعراف: 113 - 126].

علينا من نبأهم ما فيه عبرة للمعتبرين، وحُجَّةٌ على المعاندين، وكَم في الكتاب والسُّنة من الدَّلالات العقلية والنقلية على ذلك؛ فَمَنْ جَحَدَ ذلك، أو شكَّ فيه فبأيِّ حَقِيقَةٍ يَعْتَرَفُ؟ وَمَنْ أَنْكَرَهُ ﴿فَإَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيِنِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ٦ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ إِلِيمٍ﴾ ٧ [الجاثية: 6 - 8].

❁ الوجه الثامن والثلاثون: [إنكار وجود الله إساءة إلى المجتمع]:

أَنْ يُقَالَ لَهُؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ الْمَادِّيِّينَ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ وَمِيزَانَكُمْ الَّذِي تَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِيزَانُ الْحَقَائِقِ، وَقَابِلُوهُ بِمِيزَانِ الْحَقِّ الْيَقِينِ، وَهُوَ مِيزَانُ الدِّينِ، زِنُوا الْحَقَائِقَ مُفَصَّلَةً حَقِيقَةً حَقِيقَةً، وَاعْرِضُوهَا عَلَى ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَذْهَانَ وَالْمَعَارِفِ الصَّادِقَةِ، فَإِنَّهُ يَتَضَحَّ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ مُبْطِلِينَ.

أَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: قَابِلُوا بَيْنَ أَيِّ مَوْجُودٍ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي اخْتَصَصْتُمْ بِإِثْبَاتِهَا، أَوِ الَّتِي اشْتَرَكَ بَنُو آدَمَ فِي إِثْبَاتِهَا، وَبَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ، فَإِنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ -جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- وَجُودٌ وَاجِبٌ، مُسْتَحِيلٌ وَمَمْتَنَعٌ ثُبُوتُ نَقِيضِهِ، فَهُوَ أَعْظَمُ الْمَوْجُودَاتِ وَأَظْهَرُهَا.

بَلْ لَا وَجُودَ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِإِيجَادِهِ، وَوُجُودُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْحَوَادِثِ مُفْتَقِرَةٌ غَايَةً الْإِفْتِقَارَ إِلَى رَبِّهَا، لَيْسَ لشيءٍ مِنْهَا مِنْ نَفْسِهِ وَجُودٌ، فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْعَدَمُ، فَهِيَ حَادِثَةٌ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَمُضْطَرَّةٌ إِلَيْهِ كُلِّ وَقْتٍ بَعْدَ الْوُجُودِ، لَوْ قَطَعَ عَنْهَا الْأُمُورَ الَّتِي حَفَظَهَا بِهَا وَأَبْقَاهَا لَا ضَمَحَلَّتْ.

وَاللَّهُ تَعَالَى وَجُودُهُ مَرْكُوزٌ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ، مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ وَبِالطَّرْقِ

الَّتِي هِيَ أَقْوَى الطُّرُق الدَّالَّة عَلَى الْحَقِّ: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَ مَا
يَكْذُوبُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: 62].

فَحَصَرَ الْحَقَّ فِيهِ؛ إِذْ هُوَ الْحَقُّ الْوَاجِبُ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ،
وَلَا حَقَّ لشيءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا بِاسْتِنَادِهِ إِلَيْهِ، فَهُوَ وَاجِبُ الْوُجُودِ، الْمُوجِدُ لِكُلِّ
مَوْجُودٍ.

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ؟! أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِلُ؟!
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ⁽¹⁾

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ: أَنِّي يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ
أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ وَأَوْضَحُهَا؟! وَلَكِنَّ الْعِلَّةَ وَالسَّبَبَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذِهِ
الْمُجَادَلَةِ الْبَاطِلَةِ قَوْلُهُ عَنْهُمْ: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ
رُسُلَنَا﴾ [غافر: 70].

فَتَكْذِيبُهُمْ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَبِجَمِيعِ الرُّسُلِ - مَنَعَهُمْ مِنْ
قَبُولِ الْحَقِّ الَّذِي لَا حَقَّ غَيْرُهُ، وَتَرَكَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ يَعْصَهُونَ، ثُمَّ
ذَكَرَ وَعِيدَهُ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ٧٠ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ

(1) اخْتُلِفَ فِي نِسْبَتِهِ؛ فَنَسَبَهُ الصَّفَّادِيُّ إِلَى أَبِي فِرَاسٍ؛ انظر «الوفيات» (7/ 138)، وَأَمَّا أَبُو الْفَرَجِ فَنَسَبَهُ
فِي «الْأَغَانِي» (4/ 35) إِلَى أَبِي الْعَتَاهِيَةِ حَيْثُ قَالَ عَنْ الْخَلِيلِ بْنِ أَسَدِ النُّوشَجَانِيِّ: «جَاءَنَا أَبُو
الْعَتَاهِيَةِ إِلَى مَنْزِلِنَا، فَقَالَ: زَعَمَ النَّاسُ أَنِّي زَنْدِيقٌ، وَاللَّهِ مَا دِينِي إِلَّا التَّوْحِيدُ، فَقُلْنَا لَهُ: فَقُلْ شَيْئًا
تَتَحَدَّثُ بِهِ عَنْكَ! فَقَالَ:

أَلَا إِنَّنَا كُلُّنَا بَائِسُونَ	أَيُّ بَنِي آدَمَ خَالِدُونَ؟!
وَبَدُوهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ	وَكُلُّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدُونَ
فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ؟!	أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِلُ؟!
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ	دَلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ الآية [غافر: 70، 71].

زُئُوا -أُثِّمُوا العقلاء- ما نُبِتَ لِرَبِّكُمْ الْعَظِيمِ مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ فِي أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَالتَّفَرُّدِ بِكُلِّ جَلَالٍ وَجَمَالٍ، وَالتَّفَضُّلِ بِكُلِّ خَيْرٍ وَنِعَمٍ جَزَائِلٍ، وَمَا شَاهَدَتْهُ الْخَلِيقَةُ مِنْ عِنَايَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَإِتْقَانِهِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَالِانْتِظَامِ الْعَجِيبِ الَّذِي حَسَبَ ⁽¹⁾ الْعُقُولُ وَالْأَفْهَامُ؛ إِذْ تَهْتَدِي إِلَى مَا بُتَّ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ حُسْنِ الْخَلْقِ، وَبَدِيعِ الصُّنْعِ، وَلَطِيفِ الْإِنْتِظَامِ، وَقِيَامِ الْمَنَافِعِ الَّتِي لَا تُحْصَى، الْمُتَرْتَبَةِ عَلَى ذَلِكَ.

ثُمَّ انْظُرُوا إِلَى مَا نَشَرَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ يَسْتَغْنِي عَنْ رَحْمَةِ خَالِقِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَمَا بِالْعِبَادِ مِنْ نِعْمَةٍ ظَاهِرَةٍ وَلَا بَاطِنَةٍ، خَفِيَّةٍ أَوْ جَلِيَّةٍ إِلَّا مِنْ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يَأْتِي بِالْخَيْرِ وَالْحَسَنَاتِ إِلَّا هُوَ، وَلَا يَدْفَعُ الشُّوْءَ وَالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُوَ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدَلَّةِ عَلَى سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَشُمُولِ حِكْمَتِهِ، وَعَظَمَةِ اقْتِدَارِهِ.

وَانْظُرْ مَا فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالتَّدْبِيرَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْأَفْعَالِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ عَظَمَةِ مُدَبِّرِهَا وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّائِهِ وَمَجْدِهِ، وَأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْكَمَالِ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ، وَهَذِهِ أُمُورٌ مَعْلُومَةٌ بِالضَّرُورَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ.

فَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ أَثْبَتَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَثُبُوتِ أَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، وَمَنْ جَحَدَ ذَلِكَ وَأَنْكَرَهُ، وَرَدَّ الْأَدَلَّةَ الْقَوَاطِعَ، وَكَابَرَ وَعَانَدَ وَجَادَلَ بِالْبَاطِلِ؟!

(1) هكذا في النسخ التي اطلعت عليها، ولعلها: «حَيْرٌ».

وهل يَسْتَوِي الأمرُ بعبادةِ الله وَحْدَهُ، وإخلاصِ الدِّينِ له، والقيام بحَمْدِهِ وذكْرِهِ وشُكْرِهِ، والإنابةِ إليه -الَّتِي هي أفرُضُ الفُرُوضِ الَّتِي جاءتِ بِها الرُّسُلُ، وأفضلُ ما قام به العِبَادُ، واكتسبته القُلُوبُ، وأعْظَمُ سَبَبٍ يُوصِلُ إلى كُلِّ خَيْرٍ وسعادةٍ ومطلوبٍ- أم الأمرُ بِضِدِّ ذلك من الشُّرْكِ بالله، والاستكبارِ عَن عبادَتِهِ، وتَعَلُّقِ القلبِ بِالخَلْقِ، والوقوف مع المادَّةِ وعبادَتِها؟!

وهل يَسْتَوِي ما أَمَرْتُ به الرُّسُلُ من الصِّدْقِ في الأقوالِ والأفعالِ، والنَّصِيحَةِ لله، ورسولِهِ، وكتابه، ولأئِمَّةِ المسلمين وعامَّتِهِمْ، والأمر بالبرِّ والصَّلة، والقيام بحُقوقِ الجيران والأصحاب والمُعَامِلِينَ، وَمَنْ يَتَّصِلُ بِهِم العبد على اختلاف طبَقَاتِهِمْ، أم الأمر بِضِدِّ ذلك؟!

وهل يَسْتَوِي الأمرُ بِالْعَدْلِ والإحسان وإيتاءِ ذِي القُرْبَى، والنَّهْيِ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ على الخَلْقِ في دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، والتَّعَاوُنِ على البرِّ والتَّقْوَى، أم الأمر بِضِدِّ ذلك؟!

وهل تَسْتَقِيمُ الْأُمُورُ كُلُّهَا وتَصْلُحُ الْأَحْوَالُ إِلَّا بِالتَّزَامِ ذلك، والعمل به، وهل يمكن القيام بأُصُولِ الإِيْمَانِ وشرائع الإسلام، والوفاء بالحُقوقِ والعُقُودِ والعُهُودِ، والورع عن المحارم القوليَّةِ والفعلِيَّةِ إِلَّا من الإِيْمَانِ بالله واليوم الآخر الَّذِي هو أساس الخيرات والصَّلاحِ المطلق؟

وهل إذا أَطْلَقَ الْمُلْحِدُونَ المَادِّثُونَ على هذه الْأُصُولِ العظيمة والشَّرَائِعِ الجميلة النَّافعة الَّتِي لا ينفع غيرها: أَنَّها رجعيَّةٌ، ترجع بالنَّاسِ إلى الوراء، وَأَنَّها قديمةٌ، والقديم يجب أن يَرْهَدَ فيه، ويُحْذَرُ عنه؟

هل هذا القول منهم والدَّعَايَةُ الخبيثة إِلَّا من أكبر الأدلَّةِ على ضعف عُقُولِهِمْ، وسفاهة آرائِهِمْ، وكَذِبِهِمْ الصَّريح؟

وهل يستغني العباد عنها في حالة من أحوالهم؟ وهل هي إلا أكبر نعمة، وأجل كرامة أكرم الله بها العباد: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، ﴿وَمَن أَحْسَنُ مَنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]؟!

فمَن وَزَنَ بعقله الصحيح ما جاءت به الرُّسل، وأمرت به، وأرشدت إليه من معرفة الله وعبادته، والإنابة إليه، والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والإحسان، وما نهت عن ضده، ثمَّ نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد، عرف أنَّ الخير والفلاح والصَّلاح؛ الدِّينيَّ والدُّنيويَّ؛ العاجل والآجل، الظَّاهر والباطن، مع ما دَعَتْ إليه الرُّسل، وأنَّ المُلحدين تَرْمِي دعوتهم إلى الانحلال من كُلِّ خُلُقٍ جميل، والحثُّ على كُلِّ خُلُقٍ رذيل، ومآلها الفوضىَّة النَّامَّة، والانطلاق مع شَهَوَاتِ النَّفُوسِ حَتَّى تكون البهائمُ أَشْرَفَ منهم وأنْفَع، وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يُصْرِّح بذلك، فنسأل الله أن يتمَّ علينا وعلى المسلمين نِعَمه، وأن يُثَبِّتَنَا على دينه، وَيَزِيدَنَا من فضله وكرمه.

ومن أعجبِ العجائبِ أنَّ كثيرًا من الكُتَّابِ العَصْرِيِّينَ والسِّيَاسِيِّينَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ في معالجة كثيرٍ من مشاكل الحياة، ويطلبون حَلَّهَا من جميع النَّوَاحِي، ومشكلة الإلحاد الَّذِي جَرَفَ بِنَيَّارِهِ أَكْثَرَ النَّاشِئَةِ؛ لَمْ يَسْعَوْا في حَلِّهَا ومُداوِلَتِهَا

بالرُّجوع إلى الإيمانِ الصَّحيحِ، واليقينِ النَّافعِ، والصَّلاحِ المُطلقِ من جميع الوجوه، بل تركوهم في ضلالهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، وازدادت المشاكلُ التي يريدون حلَّها مشاكل أخرى، تعذر حلُّها كما هو المأمول.

فكلُّ مشاكل الحياة إذا لم تُبْنَ على الإيمانِ والدينِ الصَّحيحِ ازدادت تعقُّداً، وعَظُمَ ضرُّها، وبُعِدَ خيرُها، فلو أنَّهم أسَّسوا مُعالجاتهم المُتنوِّعة على الدينِ الصَّحيحِ، ووجَّهوا النِّشءَ إلى عقيدته، والتَّخلُّقِ بأخلاقه؛ لَأَثْمَرَتْ مَسَاعِيهم كُلُّ زَوْجٍ كريمٍ، ولتوجَّهَتِ الوجوه والأعمال إلى الخير والصَّلاحِ، وانصرفت عن الشرِّ والإضرارِ والأعمالِ القَبَّاحِ، فالفساد لا يسودُّ إلَّا إذا عَدِمَ الإيمانُ الَّذي يُنَافِيهِ، ولا يُجَامِعُهُ.

❀ الوجه التاسع والثلاثون: [بطلان دعوى المصادفة]:

أَنَّ يُقالَ لَهُؤُلَاءِ الْمَلَا حِدَةَ الْمَادِّيَّينَ: مَنِ الَّذِي أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ وَالكَثِيرَةَ، وَمَنِ الَّذِي أَحْكَمَهَا هَذَا الْإِحْكَامَ الْبَدِيعِ، وَمَنِ الَّذِي نَظَّمَ حَرَكَاتِهَا الْعَجَبِيَّةَ الَّتِي تَحَارُ الْأَفْكَارُ فِي حُسْنِهَا وَحُسْنِ نِظَامِهَا؟

فسيجيبون: إِنَّ هَذَا كُلَّهُ أَثَرُ الْمُصَادَفَةِ وَأَعْمَالِ الطَّبِيعَةِ الْعَمِيَاءِ الَّتِي لَيْسَ عِنْدَهَا عِلْمٌ، وَلَا قُدْرَةٌ، وَلَا إِرَادَةٌ، وَلَا غَيْرُهَا مِنَ الْأَوْصَافِ.

وهذا قولهم الَّذِي صَرَّحُوا بِهِ، وَاقْتَدُوا فِيهِ بِالْمُتَمَرِّدِينَ مِنْ أَثْمَتِهِمُ الضَّالِّينَ، فحينئذٍ يَتَّضِحُ لَكَ أَنَّ عُقُولَ هَؤُلَاءِ أَقْرَبَ إِلَى عُقُولِ الْمَجَانِينِ مِنْهَا إِلَى عُقُولِ الصُّبَّانِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، فَلَوْ تَرَكْتُ هَذِهِ الْعَوَالِمَ الْعَظِيمَةَ سَاعَةً وَاحِدَةً، بَلْ لِحِظَةً وَاحِدَةً لِلْمُصَادَفَةِ وَالْفَوْضُويَّةِ؛ لَزَالَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَاخْتَبَطَتِ

العوالمُ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذِ امْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤١) ﴿ فاطر: 41 ﴾.

وإذا أُورِدَ عليهم بعض الإيرادات الصحيحة المُبطلَة لِقولهم؛ أجابوا بأنه
يَحْتَمَلُ كَذَا، وَيَحْتَمَلُ كَذَا، اِحْتِمَالَاتٍ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْوَهَى.

فَيَا عَجَبًا لِمَنْ اغْتَرَّ بِاحْتِمَالَاتِ عُقُولٍ قَدْ تَبَيَّنَ سَفَاهَةُ أَهْلِهَا، وَجَرَاءَتُهُمْ،
وَهُجُومُهُمْ عَلَى أَشْرَفِ الْعُلُومِ وَأَعْظَمِ الْحَقَائِقِ، فَأَبْطَلُوهَا وَأَنْكَرُوهَا، وَلَا يَغْنَرَنَّكَ
كَمَا غَرَّهِمْ مَهَارَتُهُمْ فِي بَعْضِ عُلُومِ الْهِنْدَسَةِ وَالطَّبِيعَةِ وَالْمَخْتَرَعَاتِ الصَّنَاعِيَّةِ،
فَإِنَّهَا لَا تُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، وَلَا تَدُلُّ عَلَى فَضْلِ أَهْلِهَا الْفَضْلَ الْحَقِيقِيِّ، وَلَا
شَرَفُهُمْ: ﴿ لَا يَغْنَرَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١١٦) ﴿ مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (١١٧) ﴿ آل عمران: 196، 197 ﴾، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا
وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١١٨) ﴿ الأحقاف: 26 ﴾.

وَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ لِلْعُقُولِ حَدًّا لَا تَتَعَدَّاهُ، وَلَا تَتِمَكَّنُ مِنْ مُجَاوَزَتِهِ، وَمَا
أَدْرَكَتَهُ وَتَدْرَكَهُ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ فَهُوَ قَلِيلٌ جَدًّا فِي جَانِبٍ مَا لَا تَعْلَمُهُ مِنْ هَذِهِ
الْعَوَالِمِ، فَكَيْفَ تَتَجَاوَزُ هَذِهِ الْعَوَالِمَ الَّتِي قَصُرَتِ الْعُقُولُ عَنْ إدْرَاكِهَا حَتَّى
تَجِدَ الرَّبَّ الْعَظِيمَ الَّذِي هَذِهِ الْعَوَالِمُ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي مَلَكِهِ وَتَصْرِيفِهِ وَتَدْبِيرِهِ،
ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَوَادِثِ فَتَدَّعِي أَنَّهَا وَلِيدَةُ
الْمَصَادِفَةِ، مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ خَلَقَهَا، وَلَا مُحَدِّثٍ أَحَدَثَهَا، وَلَا حَكِيمٍ ابْتَدَعَهَا
وَنَظَّمَهَا، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ وَجَرَمٌ عَظِيمٌ: ﴿ فِي دَارِهِمْ جَنِّمِين ﴾ (٣٧) ﴿ وَعَادَا
وَتُحَمُّودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ ۖ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾
[مريم: 90، 91]. فَكَيْفَ بِمَنْ جَحَدَهُ وَنَفَاهُ بِالْكُلِّيَّةِ؟!

❁ الوجه الأربعون: [من الخيانة قطع علماء الطبيعة بحوثهم بالله]:

أَنْ يُقَالَ: من أكبر الخيانات للعلم والحقيقة أن تكون بُحُوث علماء الطَّبيعة والموادِّ والعناصر مَبْتُورَةً مَقْطُوعَةً الصَّلَة بالله وبدينه، فَإِنَّهُمْ يَبْحَثُونَ فِي الْمَوْجُودَاتِ بُحُوثًا إِضَافِيَةً كَثِيرَةً، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا فَوَائِدَ كَثِيرَةً.

ولكنهم مع ذلك لا نجدهم يذكرون الله فيها، ولا يقدرُون قَدْرَ خالقها ومُدَبِّرِها، ولا يَشْكُرُونَ مَنْ أَنْعَمَ بِها، ولا يذكرون مَشِيئَةَ الله وإرادته وقُدْرته فيها، حتَّى يَظُنَّ الظَّانُّونَ، بل يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْبَاحِثِينَ أَنَّ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وَقَعَ الْبَحْثُ فِيهَا هِيَ حَاصِلُ الْوُجُودِ، لَا وَجُودَ سِوَاهَا، فيَقْعُونَ فِي الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ الصَّرِيحِ، وَيَصِيرُونَ فِي خَبْطٍ وَخَلْطٍ مِنْ جِهَةِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:5].

فإِهمالُ أَصْلِ الْأُصُولِ مِنْ عِلْمِهِمْ وَذِكْرِهِمْ وَتَوَجُّهِهِمْ وَتَوَجُّهِهِمْ أَضَلُّ خَلْقًا كَثِيرًا، فَلَوْ أَنََّّهُمْ قَامُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْخَلْقِ مِنْ بِنَاءِ الْمَعْلُومَاتِ عَلَى حَقَائِقِهَا وَأُصُولِهَا وَالْمَوْجُودَاتِ عَلَى مُوجِدِهَا، وَالنَّعْمَ عَلَى مُسْنِدِهَا، وَالْمُتَفَضِّلِ بِهَا؛ لَهْدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَسَلِمُوا مِنَ الْخِيَانَةِ وَطُرُقِ الْجَحِيمِ.

❁ الوجه الحادي والأربعون: شهادة الله والقرآن لنبينا محمد ﷺ

إِنَّ اللَّهَ أَيْدَ رَسُولِهِ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ قَائِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَشْتَمِلُ عَلَى بَرَاهِينٍ كَثِيرَةٍ قَطْعِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَصِدْقِ رَسُولِهِ:

أحدهما: شهادة الله له.

والثانية: هذا القرآن؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19].

فأمّا شهادته لرسوله ولمّا جاء به فيقول له الذي أنزله في كلّ كتاب، وعلى لسان كلّ رسول، وشهد به وتيقنه أهل البصائر والألباب، وبفعله تعالى بما أيده به من القوة والنصر والتأييد، وإظهار دينه على الدين كلّ، وبما أنزله في شرعه من الأخبار الصادقة النافعة والحكم والأحكام والهداية والإرشاد للصّلاح المطلق في جميع الأمور.

فمّا بقي خيراً إلّا أمر به، ولا شرّاً إلّا نهى عنه وحذّر، ولا طيباً إلّا أحلّه، ولا خبيثاً إلّا حرّمه، وذلك في الأصول والفروع، وبما جبل رسوله عليه من الأخلاق الحميدة التي هي أعلى الأوصاف وأكملها، فجَمَعَ الله فيه وله من الخير والأوصاف الجميلة ما كان متفرّقاً في الكمّل من الخلق، وفي جميع الشرائع، وهي مُشاهدة مُحسوسة يعترف بها المؤمنون به، ويعرفها غيرهم، لا يمتري فيها إلّا جاهل أو مكابر⁽¹⁾.

وأمّا شهادة هذا القرآن، فإنّ الله منذ أنزله إلى أن تقوم الساعة قد تحدّى به الإنس والجنّ، وأنهم لم يأتوا -ولن يستطيعوا أن يأتوا- بمثله فيما يقْدَحون به

(1) قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِلَّا يَجِدِلْ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ ذَرَبُوا بِهٖ وَعَزَّوهُمْ وَاتَّبَعُوا التَّوْرَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157].

في هذا الدين⁽¹⁾؛ لبلاغته العظيمة، وحُسن أسلوبه، وإخباره بالغيوب، وما حَكَم به من الأحكام الأصولية والفُروعية، وما هَدَى وأرشد إليه من الصَّلاح والفلاح والكمال الدِّيني والدُّنيوي، وما حَذَّر عنه من الشرِّ والإضرار والعُقوبات العاجلة والآجلة، وما كان فيه من الأحكام التي تَصْلح لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وما شرع من الحُقُوق العادلة بَيْنَ الخَلْق؛ أفرادهم وجماعاتهم، إلى غير ذلك من آيات القرآن التي لا يمكن أن يعارضها علمٌ صحيحٌ ولا عملٌ نافعٌ.

وكلُّ خيرٍ لا شرَّ فيه فإنَّه من أحكامه، ومِمَّا دَلَّ عليه، فليأتِ المُنكر بمثالٍ واحدٍ صحيحٍ خارجٍ عن هذا الأصل، فمُجَرَّدُ وُقُوفِ النَّاظِرِينَ على هاتين الشَّهادتين العظيمتين، والتَّأَمُّلِ بِمَا اشْتَمَلتا عليه مِنَ البراهين القاطعة على ما لله مِنَ الوَحْدَانِيَّةِ وصفات الكمال والجلال كلَّه، وعلى صِدْقِ ما جاء به الرِّسُولُ؛ يَكْفِي وَحْدَهُ في إِبْطَالِ مَا نَاقَضَتْهُ من أقوال المُلحدِين؛ لَأَنَّهُ إِذَا اتَّضَحَ الحَقُّ، عُلِمَ يَقِينًا أَنَّ مَا خالفه باطلٌ، فماذا بعد الحقِّ إِلَّا الضَّلَالُ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٦﴾ [سبأ: 6]، ﴿سَرِيهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ

(1) فَتَحَدَّاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ فَعَجَزُوا؛ قَالَ ﷺ: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ

هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ﴿٨٨﴾ [الإسراء: 88].

وَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ؛ فَعَجَزُوا؛ قَالَ ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ

مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [هود: 13].

وَتَحَدَّاهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا، وَمَا زَالَ التَّحَدِّيُّ قَائِمًا؛ قَالَ جَل وَعَلَا: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ

فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنْزَلْنَاهُ نَارًا آتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أَعَدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [البقرة: 23، 24].

يَكْفِرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ [فصلت: 53].

فالحمد لله على ما بيّنه لعباده من الآيات التي لا تزال مُشاهدةً، ولا تزال مُتصرفَةً مُتنوّعةً، شاهدةً بصدقهِ وصدقِ رُسلِهِ، وكذب الكافرين به، المُكذّبين لرُسلِهِ.

❁ الوجه الثاني والأربعون: الإلحاد مانع من الشكر والصبر:

النَّظَرُ الصَّحِيحُ إِلَى مَا يَأْمُرُ بِهِ الدِّينُ وَالْإِيمَانُ مِنْ تَلَقِّي أَحْوَالِ الْحَيَاةِ وَالتَّطَوُّرَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَمَا يَتَلَقَّاهُ أَهْلُ الْإِلْحَادِ وَالْإِيمَانِ بِالْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ مِنْ حُصُولِ نِعَمٍ وَمَسَارٍّ، وَمَحَنٍ وَمُضَارٍّ.

فَالْإِيمَانُ وَالِدِّينُ الصَّحِيحُ يَأْمُرُ عِنْدَ النَّعَمِ وَالْمَسَارِّ بِشُكْرِ الْمُنْعَمِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِهَا، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى مَقَاصِدِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَدَاءِ حُقُوقِ النَّعَمِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَعِنْدَ الْمَكَارِهِ يَأْمُرُ بِالصَّبْرِ وَالرَّضَا وَالِاحْتِسَابِ وَرَجَاءِ الْأَجْرِ، مَعَ السَّعْيِ فِي دَفْعِهَا قَبْلَ نُزُولِهَا وَتَخْفِيفِهَا، أَوْ دَفْعِهَا بَعْدَ نُزُولِهَا، فَيَكْتَسِبُ الْمُؤْمِنُ الْخَيْرَ وَرَاحَةَ الْقَلْبِ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ، مَعَ مَا يَرْجُو وَيَطْمَعُ فِيهِ مِنَ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ.

أَمَّا الْمُلْحِدُونَ فَلَمَّا كَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ غَايَتِهِمْ: لَهَا يَعْمَلُونَ، وَلَهَا يَطْلُبُونَ، وَلَا غَايَةَ لَهُمْ سِوَاهَا، وَلَا إِيمَانَ لَهُمْ بغيرها، فَإِنَّهُمْ يَتَلَقَّوْنَ التَّطَوُّرَاتِ الْمُخْتَلِفَةَ كَمَا تَتَلَقَّاهَا الْبَهَائِمُ بِقُلُوبٍ جَشَعَةٍ، وَنَهَمٍ كَنَهَمِ الْأَنْعَامِ أَوْ أَعْظَمَ، لَا يَشْكُرُونَ عَلَى النِّعَمَاءِ، بَلْ يَكْفُرُونَ، وَيَبْطُرُونَ⁽¹⁾، وَيَطْغُونَ، وَلَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْمِحَنِ، بَلْ

(1) البطر: الطغيان بالنعمة، والفرح بها، ونسيان شكرها.

يَجْزَعُونَ وَيَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُ الْبَهَائِمُ، فَتَجْتَمِعُ عَلَيْهِمُ الْآلَامُ الظَّاهِرَةُ، وَالْآلَامُ الْقَلْبِيَّةُ الْبَاطِنَةُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [مُحَمَّد: 12].

فَأَثَارُ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ خَيْرٌ وَسَعَادَةٌ وَفَلَاحٌ، وَأَثَارُ الْجُحُودِ شَرٌّ وَضُرٌّ وَعَوَاقِبُ وَخِيمَةٌ.

﴿الوجه الثالث والأربعون: [التقدم العلمي مدمر في حال بعده عن

الدين]:

يقول الْمُلْحِدُونَ: «التَّرَقِّي شاملٌ لكلِّ شيءٍ»:

وَقَصَدَهُمْ بِذَلِكَ إِبْطَالُ الْأَدْيَانِ، وَأَنَّ أَفْكَارَهُمُ الْمُنْحَرِفَةَ عَنِ الْحَقِّ مَا زَالَتْ تَتَرَقَّى حَتَّى فِي نَبْذِهِمُ الدِّينَ، وَاخْتِيَارَهُمُ لِلْجُحُودِ، وَهَذَا تُكَذِّبُهُ الْأَدْيَانُ كُلُّهَا، وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ بِكَذِبِهِ.

وَأَهْلُ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ التَّرَقِّي الْمُشَاهَدَ الْآنَ إِنَّمَا هُوَ مُنْحَصَرٌّ فِي الصَّنَاعَاتِ وَالْمَخْتَرَعَاتِ، وَمَا يَحْدُثُ عَنْهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَادِيَّةِ.

وَأَمَّا تَرَقِّي الْأَرْوَاحِ وَالْأَخْلَاقِ فَإِنَّهُ بِالْعَكْسِ، فَإِنَّ الْمَادَّةَ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ قَدْ تَرَقَّتْ تَرَقِّيًّا عَظِيمًا، وَخُصُوصًا فِي هَذَا الْقَرْنِ.

وَأَمَّا الْأَدْيَانُ وَالْأَخْلَاقُ فَإِنَّهَا فِي هَذَا الْوَقْتُ هَبَطَتْ هُبُوطًا عَظِيمًا؛ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ النَّوعُ الْأَوَّلُ خَالِيًا مِنَ الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، صَارَ هَذَا التَّرَقِّي الدُّنْيَوِيُّ الصَّنَاعِيُّ ضَرَرَهُ كَبِيرٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ صَارَ سَبَبًا لِاغْتِرَارِ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَظَنُّوا بِجَهْلِهِمْ أَنَّ التَّرَقِّي

الدُّنْيَوِيَّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَهُ أَوْلَى بِكُلِّ خَيْرٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَجَهِلُوا، بَلْ ضَلُّوا ضَلَالًا مَبِينًا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ فِي أُمُورِ الطَّبِيعَةِ، وَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ فِي الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأُمُورِ النَّافِعَةِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ.

الوجه الثاني: أَنَّ هَذِهِ الْمُخْتَرَعَاتِ حَيْثُ خَلَتْ مِنْ رُوحِ الدِّينِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، صَارَتْ نَكْبَةً عَظِيمَةً عَلَى الْبَشَرِ بِمَا تَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْحُرُوبِ الَّتِي لَا نَظِيرَ لَهَا، وَالْقَتْلِ وَالتَّذْمِيرِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ، وَعَجَزَ سَاسَتُهَا وَعُلَمَاؤُهَا أَنْ يُنْظَمُوا لِلْبَشَرِ حَيَاةً مُسْتَقَرَّةً عَادِلَةً طَيِّبَةً، بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَقَاءٍ إِلَى شَقَاءٍ آخَرَ، وَهَذَا أَمْرٌ حَتَمٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَجَرَيَانُ الْأَحْوَالِ يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي الدِّينِ الصَّحِيحِ، وَالشَّرُّ كُلُّهُ فِي الْإِنْكَارِ وَالْجُحُودِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يُؤَيِّدُ هَذَا وَيُوضِّحُهُ تَوْضِيحًا بَيِّنًا وَاقِعًا:

❁ الوجه الرابع والأربعون: [الماديون عاجزون عن حل مشاكل الحياة]:

وَهُوَ أَنَّ الْمَادِّيَّيْنَ (رُؤَسَاءَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ) لَا زَالُوا مُكْرَّسِينَ عُلُومَهُمْ وَجُحُودَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ فِي حَلِّ مَشَاكِلِ الْحَيَاةِ، وَقَدْ عَجَزُوا عَنْهَا كُلَّ الْعَجْزِ، فَكُلَّمَا حَلُّوا مَشْكَلَةً، نَتَجَّ عَنْهَا مَشَاكِلٌ، وَكُلَّمَا وَجَّهُوا مِنْ جِهَةٍ، تَبَيَّنَ فِيهَا النِّقْصُ وَالْخَلْلُ وَالْاضْطِرَابُ.

أَمَّا هَذَا الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَإِنَّهُ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ الَّذِي تَنْحَلُّ بِهِ جَمِيعُ مَشَاكِلِ الْحَيَاةِ وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى، وَتَزُولُ بِهِ الشُّرُورُ وَالْأَضْرَارُ، وَتَحْصُلُ بِهِ الْخَيْرَاتُ.

وَلَنَذْكُرْ نَمُودَجًا مِنَ الْمَشَاكِلِ الَّتِي اضْطَرَبَ فِيهَا الْخَلْقُ اضْطِرَابًا عَظِيمًا، وَلَا

سبيل لهم إلى الراحة والاستقرار حتى يُفيئوا إلى الدين، فمن أعظمها: مشكلة العلم، فإنه إذا صحَّ، صحَّت العقائد والأفكار، وصلحت الأعمال المبنية عليه.

وقد كانت شريعة الإسلام تحضُّ على العلم وترغب فيه، وتأمُر بل تفرض على العباد أن يتعلَّموا جميع العلوم النَّافعة في أمور دينهم، وفي أمور دُنْيَاهُمْ، ومع حَضِّها وترغيبها في العلوم، فقد تكفَّلت ببيانها وتفصيلاتها، فقد بيَّن الله في كتابه، وعلى لسان رسوله جميع ما يحتاجه العباد من علوم العقائد، والأخلاق، والأحكام، والأصول والفروع، والعلوم المتعلقة بالأفراد والجماعات.

أمَّا العلوم الدِّينية فقد فصلَّتها تفصيلاً بعدما أصَلَّتْها تأصيلاً، والعلوم الدُّنيويَّة أسَّست لها الأصول والقواعد، وهَدَتْ إليها، وأرشدت لها العباد، فما من علم نافع إلَّا بيَّنته، وبهذا يسيِّر العلم الصحيح على الطريق المُستقيم، ويتساعد علم الدين وعلم الدنيا، وما يتعلَّق بالروح، وما يتعلَّق بالجسد؛ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].

فجمع في هذه الآية بين علم المسائل الصحيحة وهي الحق النافع، وبين علم البراهين والدلائل وهو هداية السبيل الموصلة إلى كل علم، المبرهنة عن جميع المعارف.

وأما الماديون فهم يخصُّون بالعلم علوم الدنيا التي هي وسائل لغيرها، ويقدحون وينكرون العلوم الدِّينية التي لا تنفع علومهم بدونها، ولا يرجح خيرها على شرِّها حتى تستند وتعتمد عليها، وبهذا تخبطت علومهم، وبقوا في أمرٍ مَرِيجٍ مُتَنَاقِضِينَ، مُتَضَارِبَةِ آرَائِهِمْ، غير مُستَقَرَّةِ أَفْكَارِهِمْ، فلم يحلُّوا مشكلة العلم بوجه من الوجوه، بل علومهم القاصرة أطفعتهم، واستكبروا بها عن علوم

الرُّسُل، وعن الحقِّ الصَّريحِ المُبين.

ومن المَشَاكِل: مُشكلة الغِنَى والفقر، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هذا الدِّينَ حَلَّهَا حَلًّا تَتِمُّ به الأُمُور، وتحصل الحياة الطَّيِّبة، وأَنَّهُ كما أَمَرَ بِسُلُوكِ الطُّرُقِ المشروعة في أسباب الرِّزْقِ المناسبة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وشخصٍ.

فَقَدْ أَمَرَ بالاستعانةِ بالله في تحصيلِها، وَأَن تُجْتَنَبَ الطُّرُقُ غيرُ المَشروعة، وَأَن تقوم بواجبات الغِنَى المُتنوِّعة، وكذلك عند حُلُولِ الفقر؛ أَمَرَ بالصَّبْر، وتلقَّى ذلك بالتَّسليم وعدم التَّسَخُّط، مع السَّعي في طلب الرِّزْقِ بأنواع المكاسب والأعمال، ونهى عن البطالة والكسل الَّذي يضرُّ في الدِّين والدُّنيا.

ومع أمرِهِ بالصَّبْرِ وفعل الأسباب الدَّافعة للفقر، والمُخَفِّفة له، فَقَدْ نَهَى عن ظُلم الخَلْقِ في دماءهم وأعراضهم وأموالهم، والتَّوَثُّبَ على حُقوقهم بغير حقٍّ، كما هو دأب الفقراء الَّذين لا دين لهم.

ومن ذلك: مَشَاكِلُ السِّيَاسَاتِ الكِبَارِ والصَّغَارِ، أَمَرَ بحلِّها، وَذَكَرَ الطُّرُقَ الموصلة إلى ذلك بفعل ما تَوَضَّحَتْ مصلحتُهُ، وَتَرَكَ ما تَبَيَّنَتْ مفسدَتُهُ، والمشاورة في الأمور المُشكلة والمُشتبهة في كُلِّ قليلٍ وكثيرٍ، وهذه أصولٌ لا يمكن بَسْطُها في هذه الرِّسالة المختصرة، ولكن نموذج منها يكفي اللَّيْبَ.

ومن ذلك: مشاكل الحُقوق والمعاملات، فَقَدْ أَتَى الدِّينُ فيها بغاية العَدْل، وأَمَرَ بالقيام بالحُقوق على اختلاف أنواعها: الحُقوق الرَّاتبية، والحُقوق العَارِضة، وهي في أَكْمَل ما يَكُون من الحُسْن، وبِهَا يَنْدَفَع الضَّرر والشرُّ والخصام: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ [المائدة: 50].

وبالجملة: فما مِنْ مشكلةٍ كبيرةٍ ولا صغيرةٍ إِلَّا إِذَا بُنِيَتْ على الشَّريعة

الإسلامية المحضة؛ تَمَّتْ أُمُورُهَا، وَاسْتَقَامَتْ أحوَالُهَا، وَصَلَحَتْ مِنْ جَمِيعِ الوجوه، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ مُكَافَأَةِ الْمُحْسِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمُعَاقِبَةِ الْمُجْرِمِينَ كَذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الوجه الخامس والأربعون: [بطلان وصف إلحادهم بأنه تقدم ورقي]:

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ رَوَّجُوا إِلْحَادَهُمْ بِتَحْسِينِ مَا هُمْ عَلَيْهِ بِأَوْصَافٍ إِذَا سَمِعَهَا الْجَاهِلُ هَالَتَهُ، وَاغْتَرَّ بِهَا، وَظَنَّ صِدْقَهَا، وَكُلُّ مَنْصِفٍ عَارِفٍ يَعْرِفُ كَذِبَهَا وَبَطْلَانَهَا، فَزَعَمُوهَا تَجْدِيدًا وَرَقِيًّا وَتَقَدُّمًا إِلَى الْأَمَامِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي يَغْتَرُّ بِهَا الْجَاهِلُونَ.

وَأَمَّا الْبَصِيرُ الْعَاقِلُ فَيَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ تَقَدُّمٍ وَرَقِيٍّ رُوحِيٍّ وَمَادِّيٍّ؛ فَالَّذِينَ قَدْ أَتَى بِهِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ وَأَسْلَمَهَا مِنَ الضَّرَرِ وَالْفُسَادِ، فَإِنَّ الدِّينَ كَمَا أَمَرَ بِإِصْلَاحِ الدِّينِ فَقَدْ أَمَرَ بِإِصْلَاحِ الدُّنْيَا الْإِصْلَاحَ الْحَقِيقِيَّ النَّافِعَ عَاجِلًا وَآجِلًا، عَكْسَ مَا كَذَبَ عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُ بِأَنَّهُ مُخَدَّرٌ مُفْتَرٌّ⁽¹⁾.

(1) وَمِنْ ذَلِكَ مَقَالَةُ الْهَالِكِ كَارْل مَارْكَس؛ مُؤَسِّسِ الْفِكْرِ الشُّيُوعِيِّ: «إِنَّ الدِّينَ هُوَ إِفْيُون الشُّعُوبِ».

وَالشُّيُوعِيَّةُ: مَذْهَبٌ فِكْرِيٌّ يَقُومُ عَلَى الْإِلْحَادِ، وَعَلَى أَنَّ الْمَادَّةَ هِيَ أَساسُ كُلِّ شَيْءٍ.

فَأَوَّلُ مُعْتَقَدَاتِهَا: إنْكَارُ وُجُودِ اللَّهِ ﷻ وَكُلِ الْغَيْبِيَّاتِ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّ الْمَادَّةَ هِيَ أَساسُ كُلِّ شَيْءٍ.

وَشِعَارُهُم: الْإِيمَانُ بِثَلَاثَةٍ: مَارْكَس، وَلِينِين، وَستالِين، وَالْكَفَرُ بِثَلَاثَةٍ: اللَّهِ، الدِّينِ، الْمِلْكِيَّةِ الْخَاصَّةِ.

وَهُمْ يُحَارِبُونَ الْأَدْيَانَ، وَيَعْتَبِرُونَهَا وَسِيلَةً لِيَتَخَذِيرَ الشُّعُوبَ، وَخَادِمَةً لِلرَّأْسِمَالِيَّةِ وَالْإِمْبِرِيَالِيَّةِ

وَالِاسْتِغْلَالِ - مُسْتَشْنِينَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودِيَّةُ؛ مُعْلِّلِينَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْيَهُودَ شَعْبٌ مَظْلُومٌ يَحْتَاجُ إِلَى دِينِهِ؛

لِيَسْتَعِيدَ حُقُوقَهُ الْمُعْتَصَبَةَ.

وَيَعْتَقِدُونَ بِأَنَّهُ لَا آخِرَةَ، وَلَا عِقَابَ، وَلَا ثَوَابَ فِي غَيْرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. عَلَيْهِمْ لعائنُ اللَّهِ الْمُتَابَعَةُ!

فَالدِّينُ أَعْظَمُ قُوَّةٍ تَدْفَعُ الْعِبَادَ إِلَى التَّقَدُّمِ الصَّحِيحِ، كَمَا قَدْ فَصَّلَ فِي مَوْضِعٍ
آخَرَ، فَمَحَاسِنُ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ أَرَسَى مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي، وَأَعْلَى مِنَ النُّجُومِ
الدَّرَارِي، وَأَجْلَى نَوْرًا مِنَ الشَّمْسِ الْمُشْرِقَةِ، لَا يُقَابِلُهَا ضِدُّهَا، وَلَا يُقَاوِمُهَا
الْبَاطِلُ الْمُبْهَرُجُ: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١)
[الإسراء: 81].

ولولا أَنَّ الباطل قَدْ زُخِرَفَ، وَرُوجَ بالعبارات والدعايات الْمُتَنَوِّعَةِ،
وَنَصَرَتْهُ الدُّوَلُ الْمُنْحَرِفَةُ؛ لَمْ يَقْبَلْهُ عَاقِلٌ، وَلَا أَصْغَى إِلَيْهِ لَبِيبٌ، وَلَعَرَفَ النَّاسُ
أَنَّهُ أَعْظَمُ ظُلْمَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَأَضْعَفُ مِنْ كُلِّ ضَعِيفٍ.

وإذا أُرِدَتْ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ، فَقَابِلِ بَيْنَ أَصُولِ الدِّينِ وَمَسَائِلِهِ، وَمَا يُرَغَّبُ فِيهِ،
وَمَا يُحْذَرُ عَنْهُ، وَبَيِّنْ مَا يُنَاقِضُهَا مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْإِلْحَادِ، تَجِدْ أَقْوَالَهُمْ تَضَمَّحِلُ
وَتَتَلَاشَى، وَيُظْهِرُ بَطْلَانَهَا بِهَذِهِ الْمَقَابِلَةِ.

فَإِنَّ الضُّدَّ يُعْرِفُ بَضْدَهُ؛ فَلَوْلَا اللَّيْلُ مَا عُرِفَ النَّهَارُ، وَلَوْلَا الْبَاطِلُ لَمَا
ظَهَرَتْ بَرَاهِينُ الْحَقِّ هَذَا الظُّهُورِ فِي قُوَّتِهَا، وَحَقِيقَتِهَا، وَوُضُوحِهَا، وَصِدْقِهَا،
وَحُسْنِهَا، وَهَذَا مِنَ الْحِكْمَةِ فِي مُقَابَلَةِ الْبَاطِلِ لِلْحَقِّ، كَمَا أَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَتَبَيَّنَ
الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالْمُؤْمِنُ مِنْ ضِدِّهِ، وَالصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: 42].

وبهذه الْمُقَابَلَةِ وظهور الحقِّ، تَجِدُ الْحَقَّ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ
لِبَعْضٍ فِي غَايَةِ الْإِحْكَامِ وَالِاتِّقَانِ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا
كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82]، وَتَجِدُ الْبَاطِلَ يُبْطِلُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَأَهْلُهُ فِي غَايَةِ
التَّنَاقُضِ، بَلْ تَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ مُتَنَاقِضًا، مُتَهَافَتًا أَقْوَالُهُ.

ثُمَّ انظر إلى الحقِّ ووضوحه، ووضوح ما دلَّ عليه من الكتاب والسنة، وما يؤيد ذلك من الفطر المستقيمة، والعقول الصريحة؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33].

فالحقُّ مسائله هي الصّادقة النّافعة، وأحسنُ التّفسير تفسيره وحدوده الواضحة.

وأما ضده فإنَّ مسائله باطلةٌ وضالّةٌ، وحدوده في غاية القلق والالتواء والصّعوبة والهدر الكثير الذي ليس له حاصلٌ⁽¹⁾، ولا معاني يحصلها القارئ بسهولة، وإذا وصل إليه وجده: ﴿كَرِهُوا بَقِيعَةً يَحْسَبُهَا الظُّلُمَاتُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٣٩] أو كُطِلِمَتْ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴿[النور: 40، 39]؛ ظُلْمَةُ الضَّلَالِ والجهل المُركَّب والبسيط، وظُلْمَةُ الكِبَرِ والعُرُور.

الوجه السادس والأربعون: [محال أن تهذب علوم المادة المحضة النفوس]:

أَن يُقَالَ: إِنَّهُ مُمْتَنِعٌ كُلُّ الامتناع، ومُستحيلٌ أَن تَهْذِبَ النُّفُوسُ، وتُكْتَسَبَ الفَضَائِلُ بعلومِ المَادَّةِ المَحْضَةِ وأعمالها، والتَّجَارِبُ والمشاهدة أكبرُ بُرْهَانٍ على ذلك، فَإِنَّهَا مع تَطَوُّرِهَا وتَبَحُّرِهَا عَجَزَتْ كُلُّ الْعِزِّزِ عن تَهْذِيبِ النُّفُوسِ وإصلاحها الذي يَتَوَقَّفُ عليها صلاحُ البشر.

وإنَّما الَّذِي يَتَكَفَّلُ بهذا الإصلاح، وَيَتَوَلَّى هذا التَّهْذِيبَ الصَّحِيحَ، وَيُوجِّهُ

(1) الهذر: التخليط، والكلام بما لا ينبغي. انظر «المصباح المنير»، مادة (هذر).

الأفكار إلى العلوم الصادقة، ويُوَجَّه الأعمال إلى الخير، ويزجرها عن الشر؛ هو ما جاء به الدين الإسلامي، فهو مصلح للعقائد والأخلاق، ومُهذَّب للأفكار، وحاتٌّ على الفضائل، وزاجرٌ عن الرذائل.

فَرُوحُ ما دعا إليه الدين: الإيمان بالغيب الذي يدخل فيه الإيمان بالله، وبما له من الأسماء الحُسنى والصفات والأفعال، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة، وبالجزاء العاجل والآجل على الأعمال؛ حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا التي لا تُعرف إلا من جهة الرُّسل، فعَلِمَ بهذا أَنَّهُ يَتَعَذَّرُ الإِصْلَاحُ الحَقِيقِيُّ بغير الإيمانِ الصَّحِيحِ والدين الإسلامي.

فَعُلُومُ المَادَّةِ - وَإِنْ ارْتَقَتْ فَوْقَ ما يَعْلَمُهُ النَّاسُ أضعافًا مُضَاعَفَةً - فَإِنَّهَا لَا تَبْلُغُ قَرِيبًا مِنْ عُلُومِ الأنبياء، وَلَا تَصِلُ إِلَى ما وَصَلَتْ إِلَيْهِ، وَلَا تُدْعَنُ لَهَا النُّفُوسُ، وَلَا يَكُونُ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ عَلَى النُّفُوسِ ما لَعُلُومِ الأنبياءِ صلوات الله وسلامه عليهم، فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تُدْعَنُ إِلَّا عِنْدَ إِيمَانِهَا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ واليوم الآخر، وبدون ذلك يَمْتَنَعُ الإِذْعَانُ، كما هو معلومٌ من الطَّبَاعِ البشريَّة.

❦ **الوجه السابع والأربعون:** [القرآن أكبر البراهين على صدق خاتم المرسلين]:

القرآن العظيم أكبرُ البراهين والأدلة الدالة على وحدانيَّة الله وكمالِهِ، وصدقُ رُسُلِهِ بأنواع إعجازه، ببلاغتِهِ وأسلوبِهِ وتأثيرِهِ، وإخبارِهِ بالغيُوبِ الماضية والحاضرة والمستقبلية، واتِّفَاقِهِ وعدم اختلافِهِ، وتشريعِهِ، وإصلاحِهِ جميع ما يحتاجه البشر.

وأنَّهُ على اتِّساعِ عُلُومِ الطَّبِيعَةِ والعُلُومِ العصريَّة، لَمْ يَأْتِ عِلْمٌ صحيحٌ ينقض

شيئاً من أصوله، وإخباره بعلوم لم تكن موجودة وقت تنزيله، وكون الذي أتى به لم يكن يقرأ كتاباً، ولا يخطه بيمينه⁽¹⁾، ولا تعلم من أحد، بل زكى به العباد، وكمل به الفضائل، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون⁽²⁾.

وهذه المُجمَلات تحتاج إلى تفصيل كثير، فمن نظر إلى هذا جزم جزمًا لا يُمتري فيه بأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه⁽³⁾، وبهذه الوجوه وغيرها أحدث في الأرض انقلاباً عظيماً لم يُعهد له مثيل، وكانت قد ملئت الأرض من الشرور المتنوعة فأزالها، وتلوثت القلوب بالعقائد الخبيثة والأخلاق الرذيلة فاقتلعها⁽⁴⁾، وأحل محلها الهداية والمعارف والرشد والإصلاح، فهو الدليل والبرهان، وهو الحجة على توالي الزمان: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: 9].

فالقرآن زلزل بتأثيره عقائد الجاحدين، وأقض مضاجعهم، وبدل عقائد

(1) قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزَنَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: 48].

(2) قال الله ﷻ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 129].

(3) قال الله ﷻ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

(4) أخرج مسلم (2865) عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُم مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُسِرُّوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...».

المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد هي أَصْلَحُ العقائد وَأَنْفَعُها، وأخلاق هي أحسن الأخلاق وأحمدُها، وأعمال هي أكمل الأعمال.

❁ الوجه الثامن والأربعون: [كمال أخلاق النبي ﷺ وتأييده بالمعجزات

دليل على صدقه]:

مَنْ عَرَفَ حَالَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وما هو عليه من الأخلاق العالية، وما أُعْطِيَ من العلوم النافعة الشاملة لكل ما يحتاجه الخلق، وما أُيِّدَ به مِنَ الآياتِ والبراهين المتنوعة من كلِّ وجهٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصى، كلُّ جنسٍ من آياته، بل كلُّ نوع، بل كلُّ فردٍ منها، يدلُّ أكبر دلالة على أَنَّهُ رسول الله حقًّا، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، وما خالفه باطلٌ.

فوقوفُ العاقلِ البصير على بعضِ آياتِ الرِّسول في نفسه، وفي شرعه، وفيما أُيِّدَ به - يعرف به بطلانَ أقوالِ الملحدين، وبطلانَ مذهبِ الماديين المنكرين لله ولرُسُلِهِ ودينِهِ، وأنَّ هذا الإنكارَ منهم أكبرُ بُرْهانٍ على ضلالتهم وجهلهم البليغ بالحقِّ المبين.

وتفصيل هذا الوجه يستدعي مُجلَّداتٍ؛ ولهذا كلُّ نوعٍ من آياتِ الرِّسول صُنِّفَتْ فيه المؤلَّفات على حِدَتِهِ، فازدادَ به المؤمنون إيمانًا، وقامت الحُجَّةُ على المُعاندين المنكرين، وقد قال تعالى: ﴿سَرُّيْهِمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

ولكن هؤلاء الماديين يُشاهدون من آيات الله ما يضطرُّ كلُّ عاقلٍ إلى الإيمان واليقين، وهم يتلمَّسون لها التَّحريفات والتَّحليلات الباطلة؛ ليدخلوها

في علمهم القاصر، وينكروا بذلك قُدرة الله، خصوصًا في هذه الأوقات التي ارتقت فيها علوم المادة ارتقاء هائلًا، وهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله، وكمال قدرته وحكمته ورحمته، ولكن هؤلاء كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۗ﴾ [يونس: 96، 97].

فصارت علومهم ضررًا عليهم، وخطرًا عظيمًا على جميع البشر؛ ضررًا عليهم لأنهم تكبروا بها، وفرحوا بها، واحتقروا واستهزؤوا بما جاءت به الرُّسل، وصارت خطرًا على جميع البشر، بما يترتب وسيترتب عليها من الفناء والخراب والتدمير: تدمير النفوس، وتدمير الأخلاق، نسأل الله العافية والسلامة بمنه وكرمه.

الوجه التاسع والأربعون: [الإسلام دين الفطرة والحكمة]:

أن يقال لهؤلاء الملحدِّين القادحين في الدين: قد علم أولو الألباب والنهي، وأهل البصائر والعقول أن دين الإسلام الذي جاءت به الرُّسل، ثم جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ مُكْمَلًا مُتَمِّمًا مُعَمِّمًا هو: دين الفطرة السليمة، والحكمة العلمية والعملية، والعقل والفكر والبرهان، والحجة والحرية الصحيحة، والاستقلال الصحيح، كما وصفه الله ورسوله في آيات كثيرة، وأخبار صحيحة، وكما هو المعروف المشاهد المحسوس في هذا الدين، واشتماله على هذه الأوصاف العظيمة يُعلم به علمًا يقينياً لا شك فيه أنه الحق، وما ناقضه فهو الباطل.

فهذه الأوصاف التي وُصف بها الدين، وحققتها المطابقة والمُشاهدة-

تَضَطَّرُّ الْعُقْلَاءُ إِلَى الْجَزْمِ بِأَخْبَارِهِ، وَالتَّحَقُّقِ بِأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ، وَسُلُوكِ جَمِيعِ مَا أُرْشَدُ إِلَيْهِ مِنَ الْهَدَايَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

❁ الوجه الخمسون: [شريعة النبي ﷺ أكبر دليل على أن ما جاء به هو

الحق]:

إِنَّ الْإِصْلَاحَ الْعِلْمِيَّ الْوَاسِعَ لَأُمُورِ الدِّينِ وَلَأُمُورِ الدُّنْيَا بِأَنْوَاعِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ تَنْفِيزِهِ عَمَلًا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدَلَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ، وَقَوْلُهُ حَقٌّ، وَرَسُولُهُ حَقٌّ، وَدِينُهُ هُوَ الْحَقُّ، فَإِنَّ الْبَشَرَ (الْأُمَّمِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ) لَمْ يَشْهَدُوا لِهَذَا الْإِصْلَاحِ نَظِيرًا وَلَا مُقَارَبًا بِوَجْهِهِ مِنْ الْوُجُوهِ.

وَالِاسْتِقْرَاءُ وَالتَّبَعُ أَكْبَرُ شَاهِدٍ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَهَذَا الْبُرْهَانُ الْوَاسِعُ الْكَبِيرُ، مِمَّا تَضُمُّحِلُّ مَعَهُ جَمِيعُ أَصُولِ الْمُلْحِدِينَ، فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَى مَا قَبْلَهُ، وَمَا بَعْدَهُ، وَمَا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْقَوَاطِعِ وَالْآيَاتِ السَّوَاطِعِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَجَمِيعُ عُلُومِ الْبَشَرِ - عَلَى اتِّسَاعِهَا وَتَفَوُّقِهَا - لَا تَقِي بِهَدَايَتِهِمْ إِنْ لَمْ تَسْتَنْدِ إِلَى تَعَالِيمِ الدِّينِ، وَإِذَا شَكَّكَتْ فِي هَذَا فَانْظُرْ آثَارَهَا وَمَا تَرْتَّبَ عَلَيْهَا مِنَ الشُّرُورِ، الَّتِي تَفَاقَمَ شَرُّهَا، وَتَعَذَّرَ حَسْمُهَا، وَعَظُمَتْ فَجَائِعُهَا، وَقَلَّتْ رَحْمَتُهَا وَعَذْلُهَا، وَهِيَ كُلَّمَا اتَّسَعَتْ بِوَجْهِهَا وَمَخْتَرَعَاتِهَا، أَزْدَادَ ضَرَرُهَا الْعَظِيمُ، وَاضْمَحَلَّ مَا يَرْجُوهُ الْعُقْلَاءُ مِنْ خَيْرِهَا الْعَمِيمِ؛ لِأَنَّهَا بُنِيَتْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ وَالْجَحْدِ لِدِينِ رَبِّ الْعِبَادِ، فَصَارَتْ مُلَازِمَةً لِلشُّرُوطِ وَالْفَسَادِ.

❁ الوجه الحادي والخمسون: [الموازنة بين سيرة المؤمنين وسيرة الملحدين]:

قال الله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 22]؛ فذكر وَحْدَانِيَّتَهُ الَّتِي هِيَ أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ وَأَوْضَحُهَا، وَأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا نَحْوَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ قَسَمِينَ:

قَسَمٌ سَدَّ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ، فَانْسَدَّتْ حَوْلَهُ أَبْوَابُ الْهَدَايَةِ، فَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةً لِأَظْهَرِ الْأُمُورِ وَأَعْظَمِهَا الَّذِي وَجُودُهُ وَصَفَاتُهُ أَوْصَافٌ وَاجِبَةٌ لَازِمَةٌ يَسْتَحِيلُ ضِدُّهَا، وَحِينَ أَنْكَرَتْ قُلُوبُهُمْ، اسْتَكْبَرُوا عَنِ الْانْقِيَادِ لِرَبِّهِمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَهُمْ مُلْحِدُونَ مُتَمَرِّدُونَ، وَصَفُهُمُ الْإِنْكَارُ وَالِاسْتِكْبَارُ، وَمَنْ كَانَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ فَإِنَّهُ قَدْ بَرَّهَنَ عَلَى مُكَابَرَتِهِ وَمُبَاهَاةِ تَيْتِهِ، وَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ وَبُرْهَانٍ لَمْ يُؤْمِنَ، وَلَمْ يَنْقُدْ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: فَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْبَشَرَ لَمْ يُخْلَقُوا سُدَى مُهْمَلِينَ، بَلْ خُلِقُوا بِالْحَقِّ وَلِلْحَقِّ، وَالْجَزَاءُ بِأَعْمَالِهِمْ⁽¹⁾، فَهَؤُلَاءِ قُلُوبُهُمْ مُعْتَرِفَةٌ بِاللَّهِ، مُؤْمِنَةٌ بِوَحْدَانِيَّتِهِ: وَحْدَانِيَّةِ الذَّاتِ، وَوَحْدَانِيَّةِ الصِّفَاتِ، وَهُمْ خَاضِعُونَ لِلَّهِ، مُتَقَادُونَ لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

وبهذا الاعتراف والانقياد بلغوا من الفضل والكمال البشري ما شهد لهم به الواقع والتاريخ والمحسوس من الكمال العلمي والعملِّي والرَّشَادُ والإِرشَادُ. فالبصير العاقل بمُجَرَّدِ مَا يَنْظُرُ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي أَحْوَالِهِمْ

(1) أي: بسبب أعمالهم، وقال الله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: 115، 116].

وأوصافهم وآثار أعمالهم - يعترف، ويستيقن بيقينهم وصدقهم وصدق ما بنوا عليه إيمانهم وأعمالهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 53].

ففي هذا الجانب الرُّسُلُ الْعِظَامُ وَأَصْحَابُهُمُ الْكِرَامُ، وَأُئِمَّةُ الْهُدَى وَالْأَخْبَارُ، وَطَبَقَاتُ الْعُلَمَاءِ، وَأَكَابِرُ الْعَارِفِينَ، وَجَمِيعُ طَبَقَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ نُورُ الْوُجُودِ، وَحَيَاةُ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ، بِهِمْ قَامَ الدِّينُ، وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ صَلَحَتِ الْأَحْوَالُ، وَهُمْ أَهْلُ الْهُدَى وَالسَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ وَالْخَيْرِ الْمُتَنَوِّعِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

وفي الجانبِ الْآخِرِ كُلُّ مُلْحِدٍ زَنَدِيقٍ، وَكُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِي وَصْفِهِمْ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُصْرُونَ﴾ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) [القصص: 41، 42].

فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) سَمْعَ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩)﴾ [الجملة: 7-9] جَزَاءُ لَهُمْ عَلَى اسْتِهَانَتِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِهَا.

وبهذا الإنكار والاستهزاء سلبوا منافع عقولهم، ومَرَجَتْ أَخْلَاقُهُمْ، وَسَفِهَتْ آرَائُهُمْ، وَصَارَتِ الْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالَةً مِنْهُمْ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ لَهُمْ أَذْهَانٌ وَذَكَاءٌ وَعُقُولٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١) [الأحقاف: 26].

﴿الوجه الثاني والخمسون: [نبوءة النبي الأمين ﷺ بما سيكون من

المحدثين]:

ثَبَّتَ فِي «الصَّحِيحِينَ» أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ، حَتَّى يَقُولُوا: هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلَيْتَنَّهُ، وَلَيْتَعُوذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَلِيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»⁽¹⁾.

وهذا مُصَدِّقُهُ مَا وَقَعَ مِنْ مَلَا حِدَةِ الْمَادِّيِّينَ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ يَخُوضُونَ فِي مَادَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَهُمْ نَظَرِيَّاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ كُلُّهَا خَاطِئَةٌ؛ لِأَنَّ مَبْنَاهَا عَلَى الْخَرَصِ⁽²⁾ وَالظَّنِّ الَّذِي لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، بَلْ عَلَى خِلَافِ الْمَعْلُومِ شَرْعًا وَعَقْلًا وَفِطْرَةً، فَيَتَكَلَّمُونَ فِي عِلَلِ الْمَوْجُودَاتِ عِلَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلَمْ يَنْفِذُوا مِنْهَا إِلَى مُوجِدِهَا وَخَالِقِهَا، بَلْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَجَرِّئِينَ أَنَّهُ عِلَّةُ الْعِلَلِ.

فَقَطَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الْكَلَامِ الصَّادِقِ الْحَكِيمِ بِكَذِبِهِمْ، وَنَبَّهَ عَلَى جَهْلِهِمْ وَجَرَاءَتِهِمْ، وَأَرْشَدَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قَطْعِ هَذِهِ الشُّكُوكِ وَالتَّشْكِيكَاتِ بِالِانْتِهَاءِ وَالْوُقُوفِ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا تَنْتَهِي إِلَى مُوجِدٍ وَاحِدٍ أَحَدٍ فَرْدٍ صَمَدٍ، الْأَوَّلَ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، الْمُوجِدَ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَمَرَ بِالتَّعَوُّذِ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي يَدْفَعُ إِلَى الْقُلُوبِ الْمَرِيضَةِ هَذِهِ الشُّكُوكَ وَالْأَسْئَلَةَ الْفَاسِدَةَ،

(1) أخرجه البخاري (3276) ومسلم (134) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) التخمين، وعدم اليقين، والتقدير العشوائي.

وبالإيمان بوحداية الله تعالى، وأنه ليس له مثل، ولا نديد⁽¹⁾، ولا مُشارك في شيء من كماله.

وبما أُرشد إليه ﷺ يندفع ما قاله المُلحدون، ويبتل ما ذهب إليه الماديون المتخَرِّصون الذين يُكِّرون ما لا يَعْلَمون، بل يَجحدون ما هم به مُستيقنون، وما زال الشَّيْطَانُ يُزَيِّن لهم الشُّكوك والتَّشكيكات حتَّى غَمَرَهُم الضَّلالُ، فَهُمْ فِي غِيَّهِمْ يَعْمَهُونَ.

❁ الوجه الثالث والخمسون: [علم البشر مهما بلغ كقطرة من بحر علم

الله]:

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ مَا زَالَ بِهِمُ الْحَادِثُمْ وَغُرُورُهُمْ وَضَلَالُهُمْ حَتَّى زَعَمُوا أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَوَصَفُوهُ بِأَوْصَافِ الرَّبِّ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا هَؤُلَاءِ الزَّانِقَةُ الَّذِينَ لَمْ يَخْجَلُوا مِنْ مُكَابَرَةِ الْمَحْسُوسَاتِ، وَمُبَاهَاةِ الْمُشَاهَدَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ الْإِنْسَانَ نَاقِصٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَأَنَّ مَا بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ فَبِتَعْلِيمِ اللَّهِ وَإِقْدَارِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِعِلْمِ الْإِنْسَانِ وَقُدْرَتِهِ حَدًّا لَا يَتَجَاوَزُهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ؛ لِأَنَّهُ فِي طَوْرِ الْبَشَرِ، فَكَمَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا⁽²⁾، فَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ وَالْآلَاتِ

(1) النديد: المثل والنظير. وقال الله ﷻ: ﴿فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

(2) قال الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

العلم، وأسباب القدرة البشرية⁽¹⁾.

وأما القدرة الربّانية والعلم الإلهي فمن زعم أن أحداً من الخلق يشارك الله في شيء منها، فهو مُبرّسٌ مَجْنُونٌ⁽²⁾، وإنّما اغترّ ضعفاء العقول بما شاهدوه من معلومات البشر ومقدوراتهم ومخترعاتهم حتّى أذهشتهم، وجزموا أنّهم أدركوها بحولهم وقوّتهم، وأنّه ليس لقدرة الله فيها أثر، ولا لتعليمه لهم فيها أثر، فالله خلقكم وما تعملون⁽³⁾، والله وحده الذي علّم الإنسان ما لم يعلم⁽⁴⁾، فما حصل من قدرة البشر فبأقداره، وما حصل لهم من علم ديني ودنيوي فبتعليمه، ومع ذلك فعلوهم وقدرهم مهما بلغت وترقت؛ فإنّها تضمحل إذا نسبت إلى علم الله وقدرته، ولهذا قال الرُّسل والملائكة الذين هم أعلم الخلق: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: 32].

وقال موسى للخضر حين رأى عُصفوراً نقر بمنقاره من البحر: «ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلق من علم الله إلا كما نقص البحر من نقرة هذا العُصفور»⁽⁵⁾.

(1) قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) [النحل: 78].

(2) والبرسّام: مُعَرَّب، أُطْلِقَ على اختلال العقل، وعلى وَرَمِ الرَّأْسِ، وعلى وَرَمِ الصِّدْرِ. «فتح الباري» (338/1).

(3) قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) [الصفّات: 96].

(4) قال الله ﷻ: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٥) [العلق: 5].

(5) أخرجه البخاري (122) في قصة موسى مع الخضر عليه السلام التي ذكرها الله في سورة الكهف، وفيه: «... فَبَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السِّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُّ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ...».

وفي الصَّحِيحِ مَرْفُوعًا أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا غُمِسَ فِي الْبَحْرِ»⁽¹⁾.

فَتَبًّا لِمَنْ زَعَمَ مُشَارَكَةَ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ الْقَاصِرِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ لِلرَّبِّ الْعَظِيمِ الْمُتَفَرِّدِ بِالْكَمَالِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَمَا أَعْظَمَ جَهْلَهُمْ وَضَلَالَهُمْ وَعِنَادَهُمْ وَجَرَاءَتَهُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى لِلطَّاعِينَ بِالْمَرْصَادِ.

❁ الوجه الرابع والخمسون: [ما الذي يحمل الملاحظة على مناهجهم

الباطلة؟]:

أَنْ يُقَالَ لَهُؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ مَا قَالَهُ اللَّهُ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ دُونَهُمْ بِدَرَجَاتٍ، مُبْطِلًا كُلَّ احْتِمَالٍ يُوجِّهُ لِلْقَدْحِ فِي الرَّسُولِ، وَفِيمَا جَاءَ بِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ... ❁ [الطور: 29، 30]، إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

=

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء: لفظُ النَّقْصِ هنا ليس على ظاهره، وإنَّما معناه: إنَّ عِلْمِي وَعِلْمَكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى كَنِسْبَةِ مَا نَقَرَهُ هَذَا الْعُصْفُورُ إِلَى مَاءِ الْبَحْرِ. هذا على التَّقْرِيبِ إِلَى الْأَفْهَامِ، وَإِلَّا فَنِسْبَةُ عِلْمِهِمَا أَقْلٌ وَأَحَقَرُّ، وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: «مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمَنْقَارِهِ»، أَي: فِي جَنْبِ مَعْلُومِ اللَّهِ، وَقَدْ يُطْلَقُ الْعِلْمُ بِمَعْنَى الْمَعْلُومِ، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْمَصْدَرِ لِإِرَادَةِ الْمَفْعُولِ، كَقَوْلِهِمْ: رَغِمَ ضَرْبُ السُّلْطَانِ. أَي: مَضْرُوبُهُ.»

«شرح النووي على مسلم» (15/141، 142).

(1) أخرجه مسلم (2577)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هل هذا الرسول مُحَمَّدٌ ﷺ الذي جاء بالقرآن العظيم، وبالشَّرْعِ المُبِينِ شاعراً، أو كاهناً، أو مُتَقَوِّلاً، أو ساحراً، أو ما أشَبَهَ ذلكَ مِمَّا تَصَارَبَتْ بِهِ أَقْوَالُهُمْ، أو هو أَصْدَقُ الْخَلْقِ وَأَبْرَهُمْ وَأَنْصَحُهُمْ وَأَعْلَمُهُمْ، وَأَخْشَاهُمْ لِلَّهِ، وَأَجْمَعُهُمْ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْ كُلِّ رَذِيلَةٍ، كَمَا أَجْمَعَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ مَنْ عَرَفَهُ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

أَمَ الَّذِي أَوْجِبَ لَهُمُ الرَّدَّ وَالتَّكْذِيبَ أَحْلَاهُمْ وَعُقُولُهُمْ، فَبُئِستِ الْأَحْلَامُ وَالْعُقُولُ الَّتِي تَجْحَدُ أَكْبَرَ الْأَشْيَاءِ وَأَوْضَحَهَا، وَتَكْذِبُ بِالْحَقِّ، وَتَنْهَجُ الْمَنَاهَجَ الْبَاطِلَةَ، وَتَرْضَى لَأَنْفُسِهَا بِالشُّرْكِ وَالِاسْتِكْبَارِ، فَعُقُولٌ وَأَحْلَامٌ هَذِهِ آثَارُهَا مَسْلُوبَةُ النِّفْعِ، مَكْفُولٌ لَهَا الشَّرُّ وَالضَّرَرُ.

أَمَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى هَذَا التَّكْذِيبِ لَا حَدَّ لَهُ، وَلَا يَتَوَرَّعُ صَاحِبُهُ عَنْ مُحَرَّمَ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَنْ جَرِيمَةٍ، وَالطُّغْيَانِ مَرْدُ لِأَصْحَابِهِ، مَهْلِكٌ لَهُمْ لَا مُحَالَةَ، أَمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ ﷺ يَقُولُ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: 34].

وَهَذَا التَّحْدِيّ قَائِمٌ مِنْ حِينَ نَزَلَهُ الرَّبُّ الْعَظِيمُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، لَمْ يَسْتَطِعْ وَلَنْ يَسْتَطِيعَ كُلُّ مَنْكَرٍ لَهُ، مُكْذِّبٌ لَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ اللَّفْظِيَّةِ، وَالْوُجُوهِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

أَمَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِكْبَارِ أَنََّّهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، بَلْ دَفَعَتْهُمْ الطَّبِيعَةُ، وَأَوْجَدَتْهُمْ الْمَصَادِفَةُ، فَهَذَا قَوْلُ السَّخَفِ وَالْجَنُونِ وَالْمَكَابِرَةِ الْمَعْلُومِ بَطْلَانِهِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ كُلِّ عَاقِلٍ.

أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَوَالِمِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ،

فإنَّهم مع النَّاسِ يعترفون أنَّهم أضعفُ شيءٍ، وأعجزُ شيءٍ.

أم عندهم خزائن رحمة ربِّك، يُعطون مَنْ شاؤوا، ويَمْنَعون مَنْ شاؤوا، ويحكمون بما شاؤوا، فهم مسيطرون على الملك والمملكة، كلُّ هذا يعترفون ببطلانه، فهم يعترفون أنَّهم فقراء ممالك لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا، ولا دفعا للمكاره، ولا جلبا للمصالح.

أم الَّذي حَمَلهم على هذا البُهت والتَّكذيب الكيد للرَّسول ولدينه، ونصر باطلهم حتَّى بالطُّرق الَّتِي يعرف كلُّ عاقل بطلانها، وهذا هو الواقع، وإنَّ الَّذي ينتصر للباطل وقد صَمَّم على ذلك، لو جاءته كلُّ آيةٍ لَمْ يؤمن، ولم يهتد؛ لأنَّه وَطَّن نفسه على نصر الباطل، ومقاومة الحقِّ.

أم الَّذي حَمَلهم على ذلك أنَّ لهم إلها غير الله له من أوصاف الرُّبوبيَّة والإلهيَّة ما يستحقُّ به أن يُعبدَ مع الله، ويردَّ الحقَّ لأجله، فسبحان الَّذي اعترفت المخلوقات بعظمته وسلطانه عمَّا يشركون! ⁽¹⁾.

فهو الإله الحقُّ المبين الَّذي له جميع أوصاف الكمال، ويده التَّدبير للعالم العلويِّ والسُّفليِّ، الَّذي لا يستحقُّ العبادة إلَّا هو، والَّذي لا يأتي بالحسنات

(1) والآيات بتمامها؛ قال الله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (٢١) ﴿أَمْ يَقُولُونَ سَاعِرٌ تَرْبِصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ (٢٢) ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَاصِينَ﴾ (٢٣) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَعْلَمُهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ (٢٨) ﴿أَمْ هُمْ سَمِعُوا يَسْمَعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمِلُ سُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ (٣٠) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٣١) ﴿أَمْ عَنْدهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٣٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٣٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣٤) [الطور: 43].

والخيرات إلّا هو، ولا يدفع الشّوء والسّيئات إلّا هو، الَّذي ليس له نَدٌّ ولا كُفُوٌّ بوجهٍ من الوجوه، فذَكَرَ تعالى كُلَّ احتمالٍ يُوجِّهه أعداءُ الرّسول إلى رسالته، ورد ما جاء به، وأنَّ ذلك باطلٌ قد أبطلته العقول السّليمة والفطر المُستقيمة.

وهذه الاحتمالات الّتي ذَكَرَها الله عن أولئك قد قالها هؤلاء المُلحدون الماديّون من غير حياءٍ ولا خجلٍ، تشابهت قلوبُهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فلا دين، ولا خُلُق، ولا عقل، ولا حياء من الخلق في هذه الجراءات والعظائم والمنكرات الّتي قالوها، فلم يبقَ إلّا أن يُعذّبهم الله؛ قال الله تعالى في آخر هذه الاحتمالات: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [المعارج: 42].

✽ الوجه الخامس والخمسون: [نسبة دقائق صنع الله إلى المصادفة

العمياء من أكبر الحماقات]:

أن يقال لهم: مَنْ الَّذي خلق الأرض والسّماوات والشمس والقمر والكواكب وجميع ما بثّ فيهما من دابّة، والذي أنزل من السّماء رزقاً، فأثبت به من كلّ زوجٍ كريمٍ ⁽¹⁾ متاعاً للعباد ولأنعامهم، وَمَنْ الَّذي أحكمها غاية الإحكام، وأودع فيها من بدائع حكمته، ولطيف صنعته، وأنواع جوده وكرمه ورحمته، وجعلها أدلّة وبراهين على وحدانيّته وقدرته وعظمته.

(1) قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٠﴾ [لقمان: 10].

وَمَنِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ⁽¹⁾، وَكَمَّلَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ بِالْقُوَى الْمُتَعَدِّدَةِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَعَلَّمَهُ كَيْفَ يَهْتَدِي إِلَى مَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَعَلَّمَهُ الْبَيَانَ الْعِلْمِيَّ، وَالْبَيَانَ اللَّفْظِيَّ، وَالْبَيَانَ الرَّسْمِيَّ، حَتَّى تَمَّ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ وَالْهُدَى مَا لَمْ يَتَمَّ لغيره، وَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَسْتَدَلُّ بِآيَاتِهَا، وَيَسْتَخْرِجُ مَنَافِعَهَا، وَيَسْتَدِرُّ خَيْرَاتِهَا؟!

فَإِنْ قَالُوا: «هَذَا عَمَلُ الطَّبِيعَةِ، وَهَذَا فِعْلُ الْمَصَادِفَةِ»؛ فَقَدْ بَرَهْنُوا عَلَى حِمَاqَتِهِمْ وَجَهْلِهِمُ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْهُ ضَلَالٌ أَحَدٍ، فَأَيُّ عَمَلٍ لِلطَّبِيعَةِ الَّتِي تَوْجِبُ هَذِهِ الْآثَارَ الْعَظِيمَةَ؟! وَأَيُّ أَثَرٍ جَعَلَهَا تَعْمَلُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ؟ وَأَيُّ عَقْلِ وَفِكْرٍ هَدَاهَا إِلَى هَذِهِ الْأُمُورِ؟!

أَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْبَصَائِرِ وَالْأَلْبَابِ، بَلْ وَجَمِيعُ مَنْ لَهُ نَوْعٌ مِنَ الْعَقْلِ، فَسَيَقُولُونَ: هَذَا تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ⁽²⁾، وَهَذَا صُنْعُ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ⁽³⁾، وَأَحْسَنَ خَلْقَهُ⁽⁴⁾، بِدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ⁽⁵⁾، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

(2) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96].

(3) قَالَ ﷻ: ﴿وَرَوَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88].

(4) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ] [السجدة: 6، 7].

(5) قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِدِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [١٧].

﴿الوجه السادس والخمسون: [نصر الله لرسله، وعقاب مخالفهم دليل

على صدقهم]:

قَدْ شَاهَدَ الْخَلْقُ مِنْ جَزَاءِ اللَّهِ لِلطَّائِعِينَ -وَهُمَ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ- وَعِقَابَهُ
لِلْعَاصِينَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ وَلِرَسُولِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَبِرَاهِينَ قَاطِعَاتٍ، شَاهَدُوهَا رَأْيَ
عَيْنٍ، وَمَنْ لَمْ يَشَاهِدْهَا فَقَدْ تَنَاقَلَتْهَا الْقُرُونُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، وَتَوَاتَرَتْ تَوَاتُرًا لَمْ
يَتَوَاتَرَ لَهُ نَظِيرٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

فَمَنْ الَّذِي أَرْسَلَ الطُّوفَانَ الْعَظِيمَ الَّذِي غَشَى الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ
بِهِ الْمُكَذِّبِينَ لَنُوحٍ أَجْمَعِينَ، وَنَجَّاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ؟⁽¹⁾.

وَمَنْ الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى عَادٍ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا
جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ⁽²⁾، وَنَجَّى اللَّهُ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ هُودًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟

وَمَنْ الَّذِي أَرْسَلَ الصَّيْحَةَ وَالرَّجْفَةَ عَلَى ثَمُودَ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
جَائِشِينَ، وَنَجَّى اللَّهُ صَالِحًا وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ⁽³⁾.

[البقرة: 117].

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

[العنكبوت: 14، 15].

(2) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ
كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: 42].

(3) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبِيًّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بَرِحْمَةً مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمًا ﴿٩١﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْفِيهَا إِلَّا بَعْدَ لَمَدَيْنِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: 94، 95].

وَمَنْ الَّذِي جَعَلَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ⁽¹⁾، وَقَلَّبَ عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ دِيَارَهُمْ⁽²⁾، وَأَهْلَكَ قَوْمَ شَعِيبٍ بِعَذَابِ الظُّلَّةِ؟⁽³⁾.

وَمَنْ الَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ حَتَّىٰ صَارَ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا، وَعَبَّرَهُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ نَاجِينَ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ؟⁽⁴⁾.

وَمَنْ أَيْدَىٰ مُوسَىٰ بِالْعَصَا وَالْيَدِ وَالْجَرَادِ وَالْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالْدَّمَ⁽⁵⁾، وَفَجَّرَ لَهُ الْحَجَرَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ⁽⁶⁾، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ⁽⁷⁾؟

وَمَنْ الَّذِي أَعْطَىٰ عِيسَىٰ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ مُّشَاهِدَاتٍ، جَعَلَهُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 69، 70].

(2) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا لَهُمُ الْبَيْتَ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْلَكْنَا قَوْمَهُمْ الْفَاسِقِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: 189].

(3) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: 189].

(4) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فَرَعُونُ يَبْجُودُهُ فَعَشَاهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَاشَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه: 77، 78].

(5) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: 133].

(6) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: 60].

(7) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَعَايَنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: 33].

والأَبْرَص، وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ؟⁽¹⁾.

وَمَنْ الَّذِي أَيْدٍ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالنَّصْرِ الْعَظِيمِ، وَشَقَّ لَهُ الْقَمَرَ⁽²⁾، وَسَلَّم عَلَيْهِ الشَّجَرُ وَالْحَجَرُ⁽³⁾، وَكَمْ أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ فِي إِنْزَالِ الْغَيْثِ وَإِمْسَاكِهِ⁽⁴⁾، وَفِي شِفَاءِ الْأَمْرَاضِ الْمُتَنَوِّعَةِ⁽⁵⁾، وَأَنْبَعَ الْمَاءَ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ،

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْزِلُ الْغَوِيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: 49].

(2) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ (4864)، وَمُسْلِمٌ (2800) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَنْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَقَّتَيْنِ؛ فَرَقَّةٌ فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفَرَقَّةٌ دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شَاهِدُوا».

(3) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ (2277) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ؛ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ».

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ (3626) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا؛ فَمَا اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (2670).

(4) وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (6093) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ يَخْطُبُ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ: قَحْطَ الْمَطَرُ، فَاسْتَسْقَى رَبُّكَ. فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، وَمَا نَرَى مِنْ سَحَابٍ، فَاسْتَسْقَى، فَتَشَأَّ السَّحَابُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ مَطَرُوا حَتَّى سَالَتْ مَتَاعِبُ الْمَدِينَةِ، فَمَا زَالَتْ إِلَى الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ مَا تُقْلَعُ، ثُمَّ قَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ: غَرَقْنَا، فَادْعُ رَبَّكَ يَخْبِسْهَا عَنَّا، فَضَحِكَ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَعَلَ السَّحَابُ يَتَصَدَّعُ عَنِ الْمَدِينَةِ يَمِينًا وَشِمَالًا، يُمَطِّرُ مَا حَوَالَيْنَا وَلَا يُمَطِّرُ مِنْهَا شَيْءً، يُرِيهِمُ اللَّهُ كَرَامَةَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَإِجَابَةَ دَعْوَتِهِ. «مَتَاعِبُ»: جَمْعُ مَتْعَبٍ، وَهُوَ مَجْرَى الْمَاءِ وَالْمِيزَابِ. «مَا تُقْلَعُ»: لَا تُتَمَسَّكَ عَنِ الْمَطَرِ، وَلَا يَنْكَشِفُ السَّحَابُ، وَلَا تَنْجَلِي السَّمَاءُ.

(5) وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (4039) عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّادٍ أَنَّهُ بَعْدَ مَا قَتَلَ أَبَا رَافِعٍ فِي بَيْتِهِ، (وَهُوَ رَجُلٌ يَهُودِيٌّ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﷺ)، وَجَاءَ عَبْدُ اللَّهِ يَنْزِلُ مِنْ

فَرَوَى الْخَلْقَ الْكَثِيرَ⁽¹⁾، وَبَارَكَ فِي الطَّعَامِ الَّذِي بَاشَرَهُ حَتَّى أَشْبَعَ الْخَلْقَ الْكَثِيرَ⁽²⁾، وَعَصَمَهُ مِنَ النَّاسِ وَقَدْ تَكَالَبُوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَحَفِظَهُ وَحَفِظَ مَا جَاءَ بِهِ؟⁽³⁾.

=

دَرَجَةُ بَيْتِ الْيَهُودِيِّ فَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَانْكَسَرَتْ سَاقُهُ، قَالَ: «... فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: «ابْسُطْ رِجْلَكَ»، فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا؛ فَكَانَهَا لَمْ أَشْكِيهَا قَطُّ».

وإلى جانب علاج الأمراض الحسية، كان للنبي ﷺ تأثير في علاج الأمراض المعنوية، ومن ذلك قصة الشاب الذي أتى النبي ﷺ يستأذنه في الزنا؛ فعن أبي أمامة الباهلي (رضي الله عنه) قال: «إِن فَتَى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذِنْ لِي بِالزَّانَا! فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ، فَزَجَرُوهُ! وَقَالُوا: مَهْ، مَهْ! فَقَالَ: «اِذْنُهُ». فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «أَتَجِبُهُ لِأُمِّكَ؟». قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتَجِبُهُ لِأَبْنَتِكَ؟». قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتَجِبُهُ لِأَخِيكَ؟». قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتَجِبُهُ لِعَمَّتِكَ؟». قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتَجِبُهُ لِخَالَاتِكَ؟». قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ. وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (256 / 5) (22265)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (370).

(1) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ (3572) عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِإِنَاءٍ، وَهُوَ بِالزَّوْرَاءِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَبْعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَتَوَضَّأَ الْقَوْمُ. قَالَ قَتَادَةُ: قُلْتُ لَأَنْسَ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قَالَ: ثَلَاثَ مِئَةٍ، أَوْ زُهَاءَ ثَلَاثَ مِئَةٍ». وَ«الزَّوْرَاءِ»: اسْمُ مَوْضِعٍ فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ تِلْكَ الْأَيَّامِ.

(2) وَمِنْ ذَلِكَ مَا حَدَّثَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ حِينَ أَخَذَ الْجُوعُ مِنَ الصَّحَابَةِ كُلَّ مَا خَذَ؛ فَاسْتَأْذَنُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي نَحْرِ رَوَاحِلِهِمْ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوهُ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ - أَي: مَا بَقِيَ مِنْ أَطْعِمَتِهِمْ، فَدَعَا فِيهِ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَّتِكُمْ»، فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَّتِهِمْ، حَتَّى مَا تَرَكَوا فِي الْعَسْكَرِ وَعَاءً إِلَّا مَلَّوْهُ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَحَمَلُوا مَا بَقِيَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهُ إِلَهُمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ، فَيُحْجَبُ عَنِ الْجَنَّةِ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (2484)، وَمُسْلِمٌ (27).

(3) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَذَا بَلَّغْتَ رِيسَالَتَهُ وَاللَّهُ

=

فبعض هذه الآيات تُوجِب لكل مُنصفٍ أن يعترف بوحداية الله وكمالهِ، وصحّة ما جاءت به الرُّسل، وبطلان ما ذهب إليه أعداء الرُّسل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وذلك أن الباطل يُعرف تارةً بتصويرهِ وتقريرهِ، وبيان أدلّته الواهية وشُبّهه السَّاقطة، وتارةً يُعرف ببيان الحقِّ، ووضوح براهينه السَّمعيّة والعقليّة (المُشاهدات، والمَحسوسات، والمُتواترات)، فإذا عَلِمَ الحقُّ، عَلِمَ أنَّ ما سواه باطلٌ، فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟! فأنّى يُصَرَفُ المُلحدون؟! وإلى أيِّ شيءٍ يذهبون؟! والحمدُ لله على عافيته من هذا البلاء العظيم، المُفضي إلى العذاب الأليم.

❁ الوجه السابع والخمسون: [الرد على شبهة الملحدين: لو كان الدين

حقاً لما كان أتباعه بهذا الضعف والهوان!]:

إِنَّ الْمَلَا حِدَةَ يَتَشَبَّهُونَ لِتَأْيِيدِ بَاطِلِهِمْ بِشُبّهٍ بَاطِلَةٍ تَرُوجُ عَلَى مَنْ لَا بَصِيرَةَ لَهُ، وَيُرَوِّجُهَا الْمَاجُورُونَ مِنَ الزَّنادِقَةِ الْمُتَسَبِّبِينَ لِلْإِسْلَامِ، يَقُولُونَ: انظُرُوا إِلَى حَالِ

يَعَصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ❁ [المائدة: 67].

وقد عصم الله نبيّه في مواطن كثيرة؛ كما وقع في الهجرة، وغزوة أُحُد، وغيرهما. ومن ذلك أيضًا عندما اجتمع المنافقون في العقبة للغدر برسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛ فعن أبي الطفيل، قال: «كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال فقال له القوم: أخبره إذ سألك، قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم، وقد كان في حرّة فمشى، فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قومًا قد سبقوه، فلعنهم يومئذ». أخرجه مسلم (2779).

المسلمين وما هم عليه من الضَّعْف، وأنَّهم مُتَأَخَّرُونَ في أمور الحياة، والذي آخَرَهُم دينُهُم، فَيُرَوِّجُونَ هذا من وجوهٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وهذا مِمَّا يَعْلَمُ أَنَّ المُسْتَدَلَّ به مُبْطَلٌ.

وذلك أَنَّ الواجب أَنْ تنظر إلى الدين الإسلاميِّ في نفسه، وما هو عليه من الإحكام والحسن العظيم، وما فيه من الهدايات إلى كُلِّ خيرٍ، والدَّوْدُ عن كُلِّ شرٍّ وضررٍ.

وتنظر أيضًا إلى حالة القائمين به، المُنفِّذين لتعاليمه وأحكامه في أنفسهم وفي العباد، كما كان عليه المسلمون في الصَّدر الأوَّل، فإنَّكَ ترى فيه ما يُبْهَجُ النَّاظِرِينَ، وتقوم به الحُجَّةُ على المعاندين.

وَأَمَّا النَّظَرُ إلى المسلمين التَّارِكِينَ لهدايتِهِ وإرشادِهِ وتعاليمِهِ العالية، المنحرفين عنه من وجوهٍ كثيرةٍ؛ فهذا ظِلْمٌ، ووضعٌ لِلشَّيْءِ في غير موضِعِهِ، فكما لَا يَقْدَحُ وَلَا يَضُرُّ العُلُومُ النَّافِعَةُ إذا انتسب إليها وادَّعَاها مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا، وَلَا يَحْتَجُّ بِحَالِهِمْ على ذِمِّ العلم، فهذا أَبْلَغُ وَأَوْلَى؛ ولهذا كانت الوسيلةُ الوحيدةُ إلى عَوْدِ المسلمين إلى عِزِّهِمْ وَمَجْدِهِمْ وَكَمَالِهِمْ، عَوْدُهُمْ إلى دينِهِم الصَّحِيحِ، وتمسُّكُهُمْ بِإرشاداتِهِ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ [الممتحنة: 5].

فحالُ المسلمين اليوم في تَفَرُّقِهِمْ وَتَشَتُّبِهِمْ، وَتَرْكِهِمْ جُمْهُورَ مُقَوِّمَاتِ دينِهِمْ، حَتَّى انحلُّوا وضعفوا، صارَ فِتْنَةٌ لِلْكَفَّارِ والمنافقين، وحجَابًا حَائِلًا، وَشُبْهَةٌ لِمَنْ يَرِيدُ التَّلْبِيسَ، فلا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ العظيم.

❁ الوجه الثامن والخمسون: [انحراف الخلق وانحلال أخلاقهم بسبب

الإلحاد]:

قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116].

وهذا أمرٌ مُشاهدٌ محسوسٌ، أكثر أهل الأرض ضلالٌ منحرفون، دعاةٌ إلى الضلال بأنواع الدعايات التي نهايتها أن تصل إلى هذا الذي ذكره الله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116].

فجميع ما يحتجُّون به على باطلهم ظنونٌ خاطئةٌ، وتخرصاتٌ ونظرياتٌ فاسدةٌ، واعتبر ذلك بنظرياتِ علل الوجود التي لا يزالون يُحدثون عنها بأحاديثٍ متناقضةٍ، ولا يزالون يُحدثون نظرياتٍ وتجرباتٍ في علّة العلل فيبطلونها؛ لأنّه محالٌ أن يستقرَّ لهم قولٌ صحيحٌ في ذلك حتّى يؤمنوا بخالق الوجود، وموجد العلل والمعلولات، والقادر على كلّ شيءٍ، الذي جميع الدّوات والعناصر والأسباب والمسببات كلّها منقادَةٌ لمشيئته وحكمته، ليس لها من الأمر شيءٌ، وإنّما هو حكيمٌ في وضعها مواضعها، وتنزيلها منازلها.

وكذلك اعتبر هذا بخرصهم الباطل، وقولهم بشمول التّرقّي لكلّ موجدٍ عموماً، وللإنسان خصوصاً في أخلاقه ودينه وآدابه وأعماله وصناعاته، حتّى أخذها المغتربون عنهم قضيةٌ مُسلمةٌ، وهي لا تحتاج إلى نظرٍ كثيرٍ، بل يعلم بالبدهة والضرورة أنّ التّرقّي إنّما هو في الأوقات القريبة في علوم الصّناعات والمخترعات، وبهذا اغتربوا وغرّوا غيرهم.

أَمَّا التَّرَقِّي فِي الْأَفْكَارِ الصَّحِيحَةِ، وَالْعُلُومِ الصَّادِقَةِ النَّافِعَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، فَإِنَّهَا هَبَطَتْ هُبُوطًا لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ يَقِينًا، فَخُذْ نَمُودَجًا مِنَ الْأَمْثَلَةِ، وَقَسْ أَفْكَارَهُمْ وَعُلُومَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ بِالْأَفْكَارِ الرَّاقِيَةِ، وَالْعُلُومِ الصَّادِقَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.

مثال ذلك:

أَنَّ أَفْكَارَ الْمَادِيِّينَ حَصَرُوهَا فِي الْمَادَّةِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا بِالْكُلِّيَّةِ إِلَى غَيْرِهَا، فَأَدْرَكُوا مِنْهَا مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ أَفْكَارُهُمْ، فَهَذِهِ أَفْكَارُهُمْ فِي أُمُورٍ ضَيِّقَةٍ أَوْجَبَتْ لَهُمْ جَحْدَ مَا سِوَاهَا، وَضَيِّقَتْ عُلُومَهُمْ، وَأَكْسَبَتْهُمْ الشَّقَاءَ الْعَاجِلَ وَالْآجِلَ.

وَأَمَّا الْأَفْكَارُ الدِّينِيَّةُ، فَإِنَّ أَهْلَ الدِّينِ الصَّحِيحِ اسْتَعْمَلُوا أَفْكَارَهُمْ فِيمَا هُيِّئَتْ لَهُ، وَخُلِقَتْ لَهُ، عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ لِمَعْرِفَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِذَلِكَ، أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ، وَأَسْعَدَهُمْ سَعَادَةً أَبَدِيَّةً وَفَلَاحًا دَائِمًا، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ⁽¹⁾، وَأَدَّرَ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ؛ لِيَتَوَصَّلُوا بِهَا إِلَى الْمَقْصُودِ مِمَّا خُلِقُوا لَهُ، فَيُصْلِحَ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ؛ وَلِيَحْيُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ حَيَاةً طَيِّبَةً.

فبِاللَّهِ عَلَيْكَ، هَلْ تَنْسِبُ تِلْكَ الْأَفْكَارَ الدِّينِيَّةَ إِلَى هَذِهِ الْأَفْكَارِ الْجَلِيلَةِ الْعَلِيَّةِ؟ وَقَدْ تَرْتَبَتْ عُلُومُ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى هَذِهِ الْأَفْكَارِ الْمُتَبَايِنَةِ، فَالْمَادِيُّونَ قَصَرُوهَا عَلَى عُلُومِ الْمَادَّةِ، فَتَمَّ لَهُمْ مِنْهَا مَا تَمَّ، وَالْمُؤْمِنُونَ عَرَفُوا اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَدِينِهِ؛ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فَعُلُومُهُمُ الْجَلِيلَةُ لَا يُمْكِنُ

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجمانية: 3].

أن يُقاسَ بها أو يُقارَبها شيءٌ من العُلُوم الأخر، ومع ذلك فقد شاركوا علماء المادّة في علمهم الَّذي يحتاجون إليه في إصلاح دينهم ودُنْيائهم، فإنّ دينهم قد جاء بالإصلاحات المتنوّعة كما تقدّم.

وأما الأخلاق فأهل الإلحاد والمادّة انحلت منهم الأخلاق انحلالاً ذائباً، حتّى صاروا كالبهائم، بل أضلّ منها وأخسّ، مرّجت أخلاقهم، وذهبت عُهودهم، واستباحّت كلّ مُحرّم، وانطلقوا في شهوات الغيِّ، لا يُثنيهم عنها دينٌ، ولا خُلُقٌ، ولا حياءٌ من الله، ولا من خَلقه، كما هو معروفٌ من أحوالهم، فذهب دينهم، ولم تستقيم دنياهم فيعيشوا فيها عيشةً طيِّبةً هادئةً، خسروا الدُّنيا والآخرة، وأما المؤمنون فإنّ أخلاقهم كلّ خُلُقٍ مُستحسنٍ عقلاً وشرعاً وعُرفاً، وهي الأخلاق الّتي تجعل صاحبها في المراتب العالية، والأوصاف الجميلة الحميدة، كما هو معروفٌ منهم مشاهدٌ.

❦ الوجه التاسع والخمسون: [سعادة المجتمع لا تكون إلا بسنن الإسلام

وانظّمته]:

إنّ الشريعة الإسلامية قد حكمت على الخلق أحكاماً جميلةً، لا يمكن إصلاح الأمور إلّا بها؛ لأنّها تُوجّه الظّواهر والبواطن إلى الخير، وتذوّدهم عن الشرور.

أما باطنها، فلأنّ المُتّصّفين بها، الملتزمين للدين على وجهه، قد توجّهت قلوبهم إلى القيام بالدين، واعتبروه أفضّل الفروض، وأوجب الواجبات، راجين بذلك فضل الله وثوابه، ومُحتسبين خيره، ومنّ خرج عن هذا منهم فقد جعلت له الشريعة من الحواجز والرّوادع والحدود ما يُعينه على التزامه في

عقائده وأخلاقه وآدابه وحقوقه الجميلة المُعترف بحسنها عند العقلاء، وذلك السبيل الوحيد إلى إصلاح المجتمع، واستقامة الأحوال، وسُلوك الصُّراط المُستقيم.

وأما القوانين المُلحَدة، فإنَّ غايتها إذا قَوِيَتْ: أَنْ تسيطر على بعض الظواهر، وأما الأخلاق، والبوَاطِن، والإيمان والأمن على الأرواح، وعلى الأموال، والحقوق، فهيئات أن تقوم بها قوانين إلحادية تُهدف وتقصّد أن يَكُون البشر كالبهائم إباحيين فَوْضويين في أفكارهم وإرادتهم ومُراداتهم، وتُفْضي إلى الشُّرور، وتَنْتهِي إلى الحُرُوب، وهذا أمرٌ لا يرتاب فيه عاقلٌ.

ومِمَّا يُؤيِّد هذا: أَنَّ الأحكامَ الدِّينيةَ الَّتِي أرشد إليها الشَّارعُ باقيةً ببقاء البشر، صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، بل لا تصلحُ الأمُورُ إلَّا بها.

وأما قوانين البشر وأنظمة السِّيَاسِيِّين الَّتِي لَمْ تُبنَ على الدِّين؛ فإنَّها مُوقَّتةٌ بحسب ما يرون من مصالحهم ومضارَّهم في الوقت الَّذي هم فيه، ثُمَّ تَتَغَيَّرُ وتَبْدَلُ، وربما غَيَّرَها واضعوها؛ لأنَّها من صَنِيعِ البَشَرِ، وصُنْعُهُمْ كُلُّهُ ناقِصٌ.

والشَّريعةُ الإسلاميَّةُ من صُنْعِ العزيز الحكيم العليم الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، وَعَلِمَ مصالحَ العباد في كُلِّ الأوقات والأحوال، فشرَّعها صالحةً لهم، موافقةً لمصالحهم، دافعةً لمضارَّهم، وهذا من أعظم البراهين على إبطال جميع الأُصول والأنظمة والأساسات المناقضة للدِّين، والله أعلم.

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لا يوجد قانونٌ صحيحٌ أَخَذَتْ به الأُمَمُ إلَّا وهو في الدِّين على أكمل ما يَكُون، وأصح ما يَكُون، وأسلم ما يَكُون من النِّقص، فليأتِ المُرتاب بمثالٍ واحدٍ خارجٍ عن هذا الأصلِ إنَّ كان صادقاً!

﴿الوجه الستون: [العناد والكبر يؤديان للكفر]:

قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: 101].

فذكر ﷺ أمرين عظيمين يمتنع ويستحيل وجود الكفر مع معرفتهما إلا من معاند ومكابِر، فلا عبرة به، ولا حيلة في هدايته:

أحدهما: آياتُ الله التي تُتلى على العباد، وفيها الآيات البينات، والحُجج القاطعات المُتنوعة من كل وجه، فمن عَرَف القرآن وتأمّله، ورأى اتّفاقه وعدم اختلافه وأحكامه وبلاغته، وصدّق ما أخبر به من الغيب والشّهادة، وحسن ما شرّعه وحكّم به، عرف أنّه من عند الله، وأنّ البشر - بل الإنس والجن والخلائق - لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً⁽¹⁾.

[الثاني:]⁽²⁾ وكذلك مَنْ عَرَفَ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ، وما هو عليه من الكمال المُتنوع، الكامل في رُوحه وخلقِه، الكامل في عقلِه ومعرفَتِه، والكامل في إنسانيّته بجميع مظاهرها، الَّذي اجتمع به الكمالُ الإنسانيُّ من كل وجه، مَنْ عرفه على هذا الوجه، عرف وتيقّن أنّه رسولُ الله حقّاً، ونبِيّه صدّقاً، وامتنع مع ذلك أن يُنكر رسالته، بل تحقّق صدقها وبطلان ما ناقضها، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ

(1) قال جلا وعلا: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الاسراء: 88].

(2) أضفتُ ما بين المعقوفين لاستكمال الترتيب.

يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ [البقرة: 28]، ❁ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْثَرُ
لِتَكْفُرُوا بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ❁ [فصلت: 9]. الآيات.

فَتَعَجَّبَ تعالى مِمَّنْ يكفر به وهو يشاهد - وكلُّ أحدٍ له عقلٌ يشاهد - أنَّه
الخالق للموجودات عموماً، وللأدمي خصوصاً، المُوجد له بعد العدم،
المتصرّف فيه بالأحكام القدرية، والأحكام الشرعية، وأحكام الجزاء، فكيف
يَسْتَسِيغُ أحدٌ بعد هذا البرهان أن يعدل إلى الإلحاد والكفر والإنكار، أفي الله
شكٌّ فاطر السماوات والأرض، وهو الَّذي يُطْعِم ولا يُطْعَم، وهو الغني بذاته،
والكون كله فقيرٌ إليه بذاته من كلِّ وجهٍ.

❁ الوجه الحادي والستون: [صحة العقل في أن يدرك الحق، ويعمل به]:

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةَ الْمَادِّيَّيْنَ فَسَدَتْ عُقُولُهُمْ - مداركها وأعمالها
وسلوكلها - وذلك أَنَّ صِحَّةَ العقل أن يدرك الحقَّ، وأن يعمل به، ويسلك الطريق
النَّافِعَ، وهَؤُلَاءِ أَنْكَرُوا وَجَحَدُوا الْحَقَّ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَقَوْلُهُ حَقٌّ، وَدِينُهُ
حَقٌّ، وَوَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ حَقٌّ، قَامَتْ عَلَى ذَلِكَ الْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي هِيَ
أَقْوَى الْبَرَاهِينِ وَأَصْدَقُهَا، وَشَهِدَ بِذَلِكَ لِنَفْسِهِ، وَشَهِدَ بِهِ خِيَارُ الْخَلْقِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَشَهِدَ بِهِ جَمِيعُ الْعُقَلَاءِ، وَعَلَيْهِ فُطِرَتِ الْخَلِيقَةُ، فَمَنْ أَنْكَرَ
هَذَا فَهُوَ إِمَّا مُعَانِدٌ مُكَابِرٌ، قَدْ فَسَدَ سَلُوكُهُ وَعَمَلُهُ وَقَصْدُهُ الَّتِي هِيَ ثَمَرَةُ الْعَقْلِ،
وإِمَّا مُشْتَبِهٌ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، فَهَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ جَهْلًا وَضَلَالًا؛ لِأَنَّهُ ضَلَّ
بِأَوْضَحِ الْأَشْيَاءِ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالضُّيَاءُ وَالظُّلْمَةُ، وَكُلُّ مَنْ فَسَدَ
إِدْرَاكُهُ أَوْ سَلُوكُهُ أَوْ كِلَاهُمَا، فَإِنَّ أَقْوَالَ لَأَغْيَةُ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَكُلُّ مَنْ يَقْبَلُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ

فهو أحد رجلين: إمّا جاهلٌ بحقيقة أمرهم، وإمّا ظالمٌ يُريد علوّاً في الأرض وفساداً، أو جامعٌ بينَ الوصفين، وهذه حالُ أَتْبَاعِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: 54]، وحالُ القَرَامِطَةِ مع رؤسائهم، وحالُ الكُفَّارِ والمُنَافِقِينَ فِي أُمَمَتِهِمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ⁽¹⁾». اهـ⁽²⁾.

❀ الوجه الثاني والستون: [كل أنواع الباطل قد قال بها من سبق]:

إِنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ الْمَادِيِّينَ إِذَا تُصَوِّرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ - جزم العاقلُ بطلانه، وقال: كيف اشتبه هذا على أحدٍ؟ وَيَتَعَجَّبُ مِنْ اعتقادهم إياه.

قال شيخ الإسلام: «ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيءٍ يتخيل من أنواع الباطل إلّا وقد ذهب إليه فريقٌ من النَّاسِ؛ ولهذا وَصَفَ اللَّهُ أَهْلَ الْبَاطِلِ بِأَنَّهُمْ ﴿أَمَوْتُ﴾ [النحل: 21]⁽³⁾، وَأَنَّهُمْ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: 171]⁽⁴⁾، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾⁽⁵⁾ [المنافقون: 3]، و﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]، وَأَنَّهُمْ ﴿لَفِي

(1) قال الله ﷻ عن فرعون وجنوده ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَكَاثُرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾^(٤١) [القصص: 41].

(2) انظر «مجموع الفتاوى» (2/ 138، 139).

(3) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(١١) [النحل: 21].

(4) قال جل وعلا عن المنافقين: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(١٨) [البقرة: 18].

وقال ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١٧) [البقرة: 171].

(5) قال الله ﷻ عن المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٢) [المنافقون: 3].

قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُوْكَ ﴿٩﴾ [الذاريات: 8، 9]، وَأَنَّهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ [التوبة: 45] ⁽¹⁾، وَ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [البقرة: 15] ⁽²⁾». انتهى كلامه ⁽³⁾.

فصورة قول هؤلاء الملاحدة أن جميع الموجودات وجدت بغير موجد، وجدت مصادفةً من طبيعة عمياء، لا علم لها، ولا قصد، ولا شيء من الشعور العلمي، ولا الشعور الإرادي، فلو صوّرت المحالات والممتنعات بأوضح من هذا التصوير وأشدّه مكابرةً للعقول - لم يهتد المصوّر إلى تعبير عن شيء ممتنع أبغ من هذا المنطق الجنوني، وهذا من جزاء من جاءه الحق فردّه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110].

❀ الوجه الثالث والستون: [عقيدة الكمال لله مقررّة في الفطر

والعقول]:

إنّه قد تقرر في الفطر والعقول أن الله له الكمال المطلق، والحمد المتنوع، وأنه أكبر وأعظم وأعلى وأعلم من جميع الموجودات، ولا تُنسب إليه بوجه من الوجوه، وهذا مُتَقَرَّرٌ مُسْتَقَرٌّ في قلوب جميع أهل الأديان وغيرهم من جميع العقلاء المعترفين بوجود الله، وأنه ليس كمثله شيء في جميع أوصافه

(1) قال جل جلاله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٍ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [التوبة: 45].

(2) قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [البقرة: 15].

(3) انظر «مجموع الفتاوى» (2/ 145).

وأفعاله⁽¹⁾، وَلَمْ يُنْكَرْ هَذَا إِلَّا فِرْقَةً وَشِرْذِمَةً مِنْ زَنَادِقَةِ الْفَلَاسِفَةِ الدَّهْرِيِّينَ المَارِقِينَ مِنَ الدِّيَانَاتِ وَالْمَعْقُولَاتِ.

فجميعُ أجناسِ البشرِ مُعْتَرِفُونَ لِلَّهِ تَعَالَى بِهَذِهِ الْعِظْمَةِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ طَرَائِقُهُمْ، وَتَبَايَنَتْ دِيَانَتُهُمْ، وَتَنَازَعُوا فِي الْأُصُولِ أَوْ فِي الْفُرُوعِ، فَهَذَا الْأَصْلُ لَا يَنْكَرُهُ مِنْهُمْ مَنْكَرٌ، وَلَا يَجْحَدُهُ إِلَّا الْمَعَانِدُونَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ، وَإِنْ كَانَ لَهُمْ عَقُولٌ وَأَفْنَدَةٌ أَدْرَكُوا بِهَا مَا أَدْرَكُوا مِنْ عُلُومِ الْمَادَّةِ، حَيْثُ وَجَّهُوا جَمِيعَ قُوَاهُمْ وَمَجْهُودَاتِهِمْ إِلَيْهَا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ هَذِهِ الْعُقُولُ شَيْئًا فِي أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ، بَلْ كَانَتْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، فَمَا عَلِمُوهُ مِنْ عُلُومِ الْكَوْنِ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِيمَا أَنْكَرُوهُ مِمَّا هُوَ مَقْصُودٌ أَصْلِيٌّ، وَعُلُومِ الْكَوْنِ كُلُّهَا وَسِيلَةٌ إِلَيْهِ، فَانْقَطَعُوا فِي الْوَسَائِلِ عَنِ الْمَقَاصِدِ، وَبِالدَّلِيلِ عَنِ الْمَدْلُولِ، وَبِالْكَوْنِ عَنِ الْمُكُونِ، وَبِالْصَّنْعَةِ عَنِ صَانِعِهَا، وَبَقَوْا فِي غِيَّهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ يَعْصَمُونَ.

وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى⁽²⁾، وَهُوَ مُعْطِي الْمَوْجُودَاتِ جَمِيعَ مَا فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَالْإِدْرَاكَاتِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ أَحَقُّ بِالْكَمَالِ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ، فَالَّذِي عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ مِنَ الْعُلُومِ الْوَاسِعَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَأَقْدَرَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَوَادِّ الطَّبِيعَةِ وَعَنَاصِرِهَا، وَجَعَلَ لَهُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْنَدَةَ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ

(1) قَالَ ﷻ: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى: ١١].

(2) قَالَ ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠) [النحل: ١٠].

[النحل: ١٠].

وَقَالَ جَل وَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٧) [الروم: ٢٧].

وغيرها لَمْ تَحْصَلْ للبشر إِلَّا بِإِيجَادِهِ وَإِمْدَادِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَتَسْخِيرِهِ، أَفَبِهَذِهِ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ وَالْفَوَائِدِ السَّابِغَةِ يَكْفُرُ بِهِ الْكَافِرُونَ، وَيَجْحَدُهُ الْجَاهِدُونَ: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثُ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَتُهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6].

﴿ الوجه الرابع والستون: [كل دليل يبطل به الشرك هو برهان على

بطلان الإلحاد]:

إِنَّ كُلَّ بَرَهَانٍ وَدَلِيلٍ أَبْطَلَ اللَّهُ بِهِ الشَّرْكَ، وَقَرَّرَ بِهِ التَّوْحِيدَ، فَهُوَ بَرَهَانٌ عَلَى بَطْلَانِ الْإِلْحَادِ وَالْجُحُودِ؛ لِأَنَّ الْمَشْرِكِينَ يَعْتَرِفُونَ بِاللَّهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَلَكِنَّهُمْ يُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ، فَيَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ شُرَكَاهُمْ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ:

منها: أَنَّ اعْتِرَافَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ يُوجِبُ لَهُمْ أَنْ يَقُومُوا بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَمَا هُوَ الْمَنْفَرَدُ بِالنِّعَمِ وَجَلْبِ الْخَيْرَاتِ، وَدَفْعِ الشُّوْءِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُحْمَدُ وَيُشْكَرُ، وَيُثْنَى عَلَيْهِ.

ومنها: أَنَّ شَوَاهِدَ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ظَاهِرَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ⁽¹⁾، فَيَجِبُ أَنْ يُنْزِلُوا فَقْرَهُمْ وَفَاقَتَهُمْ وَضُرُورَتَهُمْ بِمَنْ لَا يَأْتِي بِالْإِيجَادِ وَالْإِمْدَادِ إِلَّا هُوَ، الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ.

(1) قَالَ جَلْ جَلَالَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

ومنها: أَنَّ مَنْ سِوَاهُ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا لغيرهم نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نُشُوراً⁽¹⁾، لَا يَدْفَعُونَ الْمَكَارِهِ، وَلَا يَجْلِبُونَ الْمَحَابَّ، وَمَنْ كَانَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ فَعِبَادَتُهُ بَاطِلَةٌ، فَإِذَا بَطَلَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَتَقَرَّرَ وَجُوبُ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ؛ ثَبَتَ وَحْدَانِيَّةُ اللَّهِ، وَتَفَرَّدَ بِكُلِّ كَمَالٍ، وَاضْمَحَلَّ قَوْلُ الْجَاهِلِينَ، كَمَا اضْمَحَلَّ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ.

❀ الوجه الخامس والستون: [البراهين على رسالة الرسل مبطلّة لأقوال

الملحدين]:

إِنَّ الْبَرَاهِينَ الدَّالَّةَ عَلَى رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرِسَالَةِ سَائِرِ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ - مِنْ أَكْبَرِ الْبَرَاهِينَ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِ الْمُلْحِدِينَ، وَأَيَاتِ الرُّسُلِ عُمُومًا، وَمُحَمَّدٍ خُصُوصًا لَا تُعَدُّ وَلَا تُخْصَى، مُتَنَوِّعَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، تُوجِبُ الْعِلْمَ الضَّرُورِيِّ بِصَدَقَتِهِمْ وَصِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ أَكْبَرُ أَعْدَاءِ لِلرُّسُلِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَلَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ مَعَ اعْتِنَاقِ مَذْهَبِ الْمَادِّيِّينَ الْمُتَنَافِي لِلرِّسَالَةِ وَلِلْعُقُولِ وَالْفِطَرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❀ الوجه السادس والستون: [البراهين على البعث هادمة لأقوال

الملحدين]:

الْبَرَاهِينُ الدَّالَّةُ عَلَى الْبَعْثِ كُلُّهَا تُبْطَلُ أَصُولُ الْمُلْحِدِينَ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ تَعَالَى

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿٢﴾ [الفرقان: 3].

على البعث بقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57].

وبأنه كما بدأ الخلق من العدم، فإنه سيُعِيدهم للجزاء، وبإحياء الله الأرض بعد موتها، واستدلَّ بكمال قدرته، واستدلَّ بحكمته، وأنه لا يليق به أن يترك الخلق سُدىً⁽¹⁾، لا يُؤَمِّرون، ولا يُنْهَوْنَ، ولا يُثَابَوْنَ، ولا يُعَاقَبُونَ، وبغير ذلك من البراهين.

وهذه أمثلة ونماذج لهذه الأصول الثلاثة: التوحيد، والرِّسالة، والبعث، وكل واحد من هذه الأصول لو بُسِطَتْ بَرَاهِينُهُ لَبَلَّغَتْ شَيْئًا كَثِيرًا، فكل واحد منها قد وصل إلى عِلْمِ اليقين، وعَيْنِ اليقين، وَحَقُّ اليقين⁽²⁾، وهي تهدمُ أساسَ التَّعْطِيلِ والإلحاد، وتوجب على العباد الاعتراف بما خَلَقُوا له من الإيمان بالله وكتبه ورُسُلِهِ، وعبادته وحده لا شريك له، ومن المعلوم أن الماديين المُلْحِدِينَ يُبَاهِتُونَ، وينكرون ذلك كله.

(1) قال جل في علاه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]، وقال ﷺ: ﴿أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: 36].

(2) ورد ذكر هذه الألفاظ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَبْثَ الْيَقِينِ ۝﴾ [التكاثر: 5-7]، وفي قوله ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: 95].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الفرق بين عِلْمِ اليقين، وعَيْنِ اليقين، وَحَقِّ اليقين قد مثَّلتُ المراتبَ الثلاثة: بِمَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّ عِنْدَهُ عَسَلًا، وَأَنْتَ لَا تَشْكُ في صدقه، ثُمَّ أَرَاكَ إِياه؛ فَازْدَدْتَ يَقِينًا، ثُمَّ دُقَّتْ مِنْهُ؛ فَالْأَوَّلُ: عِلْمُ اليقين، والثَّانِي: عَيْنُ اليقين، والثَّالِثُ: حَقُّ اليقين. فَعَلِمْنَا الآنَ بِالْجَنَّةِ والنَّارِ عِلْمَ يَقِينٍ؛ فَإِذَا أُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ في المَوْقِفِ (مَوْقِفِ الْحَشْرِ) لِلْمُتَّقِينَ، وشَاهَدَهَا الْخَلَائِقُ، ﴿وَبُرَزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: 91]، وَعَايَهَا الْخَلَائِقُ - فَذَلِكَ عَيْنُ اليقين، فَإِذَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأُدْخِلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ - فَذَلِكَ حِسْتَدَ حَقُّ اليقين».

❁ الوجه السابع والستون: [كمال الرسول محمد ﷺ دليل على

صدقه]:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

هذه الآية دلّت على كمال علم الرسول محمد ﷺ، وكمال تعليمه للخلق، وكمال تنفيذه للهدى والصّلاح الذي جاء به، فهل في إمكان أحد من البشر (الأوليين والآخرين) وجود هذه العلوم العالية النّافعة الواسعة في شخص واحد، وحُصول التّعليم منه لأناس كانوا قبل ذلك في غاية الجهل والضّلال المبين حتّى انتقلوا من هذا الجهل والضّلال إلى العلم الواسع والهدى المتنوّع.

ثمّ مع هذا العلم والتّعليم الممتنع وجوده، أو وجود ما يقاربه في شخص واحد، نفذ ﷺ في الخلق هذه التّعاليم والإصلاحات الدّينية والدّنيوية، فاستقامت به الأمور، وصلحت الأحوال.

إنّ في ذلك لعلّة للمعتبرين، وآياتٍ لأولي الألباب، حيث بُعث هذا النّبيّ الأمّيّ الذي لا يقرأ كتاباً، ولا يخطُّ بيمينه، ولا جالس أحدًا من العلماء السّابقين فتعلّم منهم، فجاء بعلوم الأولين والآخرين، وبما فيه صلاح الدّنيا والدّين، فزال به الجهالات والضّلالات، وتَقَشَّعت عن القلوب به الظُّلمات، وحصل كمال الرُّشد والهدى، وزال عن أمّته أسباب الهلاك والرّدى.

شهد بهذا الأولياء والأعداء، واتفق الخلق على أنه لم يوجد أحد يقاربه من العظماء، وكيف يقاربه أحد أو يُدانيه وكلُّ خصلةٍ من خصال الكمال له منها أعلاها وأرفعها، وبه كملت العقول والبصائر، ولا يقدر في هذا إلا كلُّ مباحةٍ مكابرٍ: ﴿وَالَّذِينَ يُخَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ، جُحُومُهُمْ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦) [الشورى: ١٦].

❁ الوجه الثامن والستون: [حرص المحتلين على إفساد التعليم]:

لَمَّا عَلِمَ الْمُسْتَعْمِرُونَ^(١) الْمُلْحِدُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ الْحَقِيقِيَّ وَالِدِينَ الْإِسْلَامِيَّ أَقْوَى حَصْنٍ، وَأَعْظَمَ سِلَاحٍ لِمَقَاوِمَتِهِمْ، وَقَدْ عَرَفُوا ذَلِكَ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَحَمَلُوا حِمَالَتٍ مُتَنَوِّعَةً، فَرَجَعُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ مَهْزُومِينَ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَعَرَفُوا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ أَنَّهُ مِنَ الْمُحَالِ السَّيْطَرَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَعَقَائِدِهِ وَأَخْلَاقِهِ، فَعَمِلُوا مَوَاسِمَاتٍ وَاسِعَةً مُتَنَوِّعَةً، وَسَاعَدُوهَا بِالْقُوَّةِ، وَدَرَسُوا الْإِلْحَادَ فِي الْمَدَارِسِ الَّتِي اغْتَفَلُوا أَهْلَهَا، وَذَهَبُوا يُهَجِّنُونَ جَمِيعَ تَعْلِيمَاتِ الْإِسْلَامِ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ، وَمَا يَحْكُمُ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَقَالُوا: إِنَّهَا رَجَعِيَّةٌ، تَرْجِعُ بِالنَّاسِ إِلَى الْوَرَاءِ عَنِ التَّقَدُّمِ الْمَطْلُوبِ، وَأَوْجَدُوا لَهُمْ مِنْ أَرْبَابِ الْمَطَامِعِ الْمَاجُورِينَ وَمِنْ الْبُلَهَاءِ الْمَعْرُورِينَ مَنْ يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى مَطْلُوبِهِمْ، وَالتَّرْهِيدِ فِي الدِّينِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ.

ولكن -والله الحمد- قَدْ عَلِمَ أَهْلُ الْبَصَائِرِ مَقَاصِدَهُمْ، وَعَرَفُوا الْخَوْنََةَ مِمَّنْ

(١) هكذا سَمَّاهُمُ الشَّيْخُ رَحْمَةُ اللَّهِ، عَلَى مَا جَرَى إِطْلَاقُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَى أَنْ يُسَمُّوا (مُحْتَلِينَ - مُسْتَخْرِبِينَ)؛ فَهَمْ لَمْ يَقَوْمُوا يَوْمًا بِإِعْمَارِ شِبْرِ احْتِلَاوِهِ.

ينتسب إلى ملة الإسلام، وهو أعظمُ عدوٍّ للإسلام في صورة صديق، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون، يقولون ما يعلمون خلافه، وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه، وأن البشر لا يمكن أن يحيا حياة طيبة، ويعيشوا في الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين، وأن الإلحاد أعظم نكبة طرقت البشر، وأن آثاره الشرُّ الكبير، والإباحية والفوضوية، وتقويض دعائم العمران، والسير إلى الهلاك والشقاء.

فمتى رأيت من ينق بدم الرجعية، وذم كل قديم، ويأمر بنبد ذلك؛ فاعلم أنه أحد رجلين: إمّا ملحد قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرُّسل، ونبد ما جاؤوا به، وإمّا مغرورٌ مخدوعٌ مقلدٌ لهم، قد غرته هذه المدنية الزائفة، وأعجبه رُونقها، وظنَّ بجهله أنها شيء.

وهؤلاء كاذبون في ذلك، فإن أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى، ولا يكادون يخالفونهم، ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيء من التعظيم الصحيح، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة، فهل العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والعقائد الصادقة، والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل الوجوه وأحسنها وأنفعها؟!

وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه، هل تجده إلا مشتملاً على كل خير، هادياً إلى كل رشدٍ وصلاح، حاثاً على كل فلاح؟!

❁ الوجه التاسع والستون: [الإسلام يقيم الدين والدولة]:

مِنْ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ وَقِيَامِهِ بِكُلِّ إِصْلَاحٍ أَنَّهُ لَيْسَ عَقَائِدَ وَأَخْلَاقًا فَقَطْ، وَإِنَّمَا هُوَ - مَعَ ذَلِكَ - مُوجَّهٌ وَحَاكِمٌ، وَصَاحِبُ دَوْلَةٍ وَجِهَادٍ، فَالَّذِينَ الْإِسْلَامِيُّ بِعَقَائِدِهِ، وَأَخْلَاقِهِ، وَأَدَابِهِ، وَتَوْجِيهَاتِهِ، وَحُكْمِهِ، وَسُلْطَتِهِ، وَحِمَايَتِهِ الْحُقُوقِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ - كَمَا هُوَ مَشْرُوحٌ مُفَصَّلٌ - مِنْ أَكْبَرِ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ عَلِيمٍ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ إِذْ شَرَعَ لَهُمْ هَذَا الدِّينَ الَّذِي لَمْ يَبْقَ خَيْرًا إِلَّا دَلٌّ عَلَيْهِ، وَحَثٌّ عَلَيْهِ، وَلَا شَرًّا إِلَّا حَذَرٌ مِنْهُ، وَلَا حَقًّا إِلَّا أَقَامَهُ، وَلَا عَدْلًا إِلَّا جَعَلَ لَهُ مَسَالِكَ وَطُرُقًا يَقُومُ عَلَيْهَا.

فَهُوَ دِينٌ وَدَوْلَةٌ، وَجَامِعٌ بَيْنَ مَصَالِحِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَبَيْنَ التَّسَامُحِ وَالتَّيْسِيرِ، وَبَيْنَ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ، وَالْمَقَاوِمَةِ لِكُلِّ مَعَانِدٍ مُحَادٍّ مُعَادٍ لِلدِّينِ وَأَهْلِهِ، عَكْسَ مَا نَبِهَ الْمُلْحِدُونَ أَنَّهُ دِينٌ بِلَا دَوْلَةٍ، وَآخِرَةُ لَا دُنْيَا مَعَهَا، فَإِنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ لِيَتَوَسَّلُوا إِلَى تَثْبِيطِ أَهْلِهِ عَنْ مَقَاوِمَةِ الْمُعْتَدِينَ، وَبِذَلِكَ يُمَهِّدُونَ الطَّرِيقَ لِلْأَعْدَاءِ الْمُسْتَعْمِرِينَ الظَّالِمِينَ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ كَذَبُوا وَظَلَمُوا، وَكَادُوا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَكَانُوا أَجْرَاءَ وَسِمَاسِرَ لِلْأَعْدَاءِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ الوجه السبعون: [من أكبر أسباب الإلحاد: الإعراض عن علوم

الدين]:

إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْإِلْحَادِ: الْإِعْرَاضُ عَنْ عُلُومِ الدِّينِ، وَإِلَّا فَمَنْ عَرَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ وَعَلِمَ مَا جَاءَ بِهِ دِينُ الْإِسْلَامِ وَلَوْ مَعْرِفَةً مُتَوَسِّطَةً، اسْتَحَالَ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ الْإِلْحَادُ جَهْلًا وَضَلَالًا، فَإِنَّ الدِّينَ بِطَبِيعَتِهِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ

مِنَ الْبَرَاهِينِ يَضْطَرُّ صَاحِبَهُ إِلَى الْإِقْرَارِ وَالاعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَبُطْلَانِ مَا نَاقَضَ ذَلِكَ، فَلَا تَجِدُ مَلْحَدًا إِلَّا مَعْرُضًا مِنْ أَعْظَمِ الْجَاهِلِينَ، أَوْ مَعَانِدًا عَارِفًا مِنْ أَكْبَرِ الْمَبَاهِتِينَ الْمَكَابِرِينَ.

وَمِنَ الْمَصَائِبِ الْكَبِيرَةِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَصْرِيِّينَ لَيْسَ عِنْدَهُ بِصِيرَةٌ وَلَا مَعْرِفَةٌ بِالْدِّينِ، لَا قَلِيلَةٌ وَلَا كَثِيرَةٌ، وَإِنَّمَا عِنْدَهُ إِقْبَالٌ عَلَى الصُّحُفِ الْمَشْتَمَلَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا تَدْعُو إِلَى الْإِلْحَادِ بِأَسَالِيبَ وَطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ، فَتَصَادَفُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنفُسَهُمْ عَارِفِينَ، وَهُمْ مِنْ أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ، وَتَمَلَأُ أَذْهَانَهُمْ مِنَ الْآرَاءِ السَّخِيفَةِ، وَالنَّظَرِيَّاتِ الْمُخِيفَةِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْدِّينِ مَا يَصْدُقُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِنْدِفَاعِ مَعَ هَذَا التَّيَّارِ الْمَادِّيِّ.

وَمَا أَكْثَرَ الْهَالِكِينَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ! وَلَيْسَ لَهُؤُلَاءِ دَوَاءٌ إِلَّا الْإِقْبَالُ عَلَى مَعْرِفَةِ الدِّينِ وَعُلُومِهِ وَآدَابِهِ وَأَخْلَاقِهِ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَلَا يُعْرِفُ الدِّينَ بِتَتَبُعِ أَحْوَالٍ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ وَهُوَ مُنْحَرِفٌ عَنْهُ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ وَأَنْكَرِ الْمُنْكَرِ، وَقَدْ صَارَ هَذَا الْمَسْلُوكُ طَرِيقًا لِأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرِيِّينَ وَالْبَاطِنِيِّينَ، فَقَدْ حَمَلُوا الْإِسْلَامَ أَوْزَارَ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ مِنْ مُلُوكٍ جَائِرِينَ، وَأُمَرَاءَ مُسْتَبْدِينَ، وَأَدْعِيَاءَ مُنْحَرِفِينَ عَنْ عَقَائِدِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَمُتَفَلِّتِينَ عَنْ أَحْكَامِهِ حَتَّى صَارُوا أَعْظَمَ حِجَابٍ لِلْمُغْتَرِبِينَ، وَأَعْظَمَ حُجَّةٍ لِلْمَعَانِدِينَ الْعَارِفِينَ.

وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ مَعْرِفَةُ الْإِسْلَامِ مِنْ مَنَابِعِهِ وَيَنْبُوعِهِ الْأَصْلِيِّ، وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ الْقَوْلِيَّةُ وَالْفِعْلِيَّةُ، وَعَمَلُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالصَّالِحِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الدِّينُ، وَهُوَ الْأَنْمُودَجُ الصَّحِيحُ لِمَنْ يَرِيدُ الْإِنْصَافَ، أَمَّا مَنْ يَرِيدُ الْإِعْتِسَافَ وَقَصْدَهُ مَعْرُوفٌ، فَإِنَّهُ يُزَوِّرُ عَلَى ضَعْفَاءِ الْعُقُولِ وَالْبَصَائِرِ بِهَذِهِ التَّمْويهَاتِ، وَيَنْسِبُ إِلَى الدِّينِ مَا هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ.

وإذا كانت فنون العلم؛ كالطبِّ، والحساب، والهندسة، وما أشبهها، لا يقدح فيها من انتسب إليها وهو جاهلٌ بها، فكيف بهذا الدين الذي تفرَّعت عنه جميعُ العلوم النافعة، والمعارف الراقية، والأخلاق العالية، وقد ثبتت أصولُه حتَّى كانت أثبت من الرواسي، وأضاء نوره حتَّى أنار ما بين الخافقين⁽¹⁾، واتَّسعت آفاق إصلاحاته حتَّى شملت إصلاح الأفراد والجماعات، والحكَّام والمحكوم عليهم، والظاهر والباطن، والدُّنيا والآخرة، فتبَّاً لمن قدح فيه بحال من ينسب إليه وهو أبعد النَّاس عنه، سبحانه هذا بُهتانٌ عظيمٌ!

❁ الوجه الحادي والسبعون: [الملحدون يعارضون عقول العقلاء وعلوم

الأنبياء]:

إنَّ مدارَ هؤلاء المُلحدِين على تحكيم عُقولهم، وعَرَضُ العُلُوم والحقائق عليها، فما وافقها قَبِلوه، وما ناقضها نَفَوْه وأنكروه، فعَارَضُوا بِهَا عُقُولَ جميعِ العُقلاء وعلوم الأنبياء وأتباعهم، وعُقولهم قد عُرِفَ فسادها وتناقضها وتَهَافتها. فهذا الأصل الذي بنوا عليه كلَّ شيءٍ أصلٌ مُنهارٌ متهافٌ في غاية الفساد والاضطراب، وقد فتحوا به للنَّاس المُغتَرِّين بهم باب الفوضى في الآراء والنظريات، حتَّى صار كلُّ طائفةٍ، بل كلُّ شخصٍ منهم يدَّعي أنَّ الصَّواب معه، والخطأ مع غيره.

ولهذا تجرَّأ كلُّ جاهلٍ على القدح فيما جاءت به الرُّسل، ونزلت به الكُتُب السَّماويَّة، حتَّى امتلأت الدُّنيا من الإلحاد، والدَّعوة إلى المادِيَّة المحضة.

(1) الخافقان: طرفاً السَّماء والأرض، أو المشرق والمغرب.

واستجاب لدعوتهم رِعَاعَ الْخَلْقِ الَّذِينَ لَا عِلْمَ عَنْهُمْ، وَلَا دِينَ، وَلَا أَخْلَاقَ، وَخِيفَ أَنْ يَقَعَ - وَلَا بَدْءَ مِنْ وَقُوعِهِ - مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللَّهُ اللَّهُ»⁽¹⁾، «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شَرَارِ الْخَلْقِ»⁽²⁾.

وَصَرْنَا فِي وَقْتِ الْقَابِضِ فِيهِ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، مِنْ كَثَرَةِ الْإِلْحَادِ وَالذَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَكَثَرَةِ الْمَعَارِضَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَالْمَيْلِ بِالْكُلِّيَّةِ إِلَى الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا وَرِئَاسَتِهَا، حَتَّى صَارَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ الْعَصْرِيِّينَ يَدْعُونَ إِلَى عِمَارَةِ الدُّنْيَا، وَالْإِقْبَالِ بِالْقَلْبِ وَالْقَالِبِ عَلَيْهَا، وَنَسِيَانِ الْآخِرَةِ، وَيُحَرِّفُونَ لَذَلِكَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَانْحَرَفُوا بِهَذَا انْحِرَافًا عَظِيمًا، وَضَلُّوا وَأَضَلُّوا كَثِيرًا، وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ دَعَوْا الْخَلْقَ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ (بِالْأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَالتَّمَتُّعِ الْمُبَاحِ مِنَ الدُّنْيَا، وَطَلْبِهَا الطَّلَبِ الْجَمِيلِ، وَالتَّوَسُّلِ بِذَلِكَ إِلَى الْمَقْصُودِ الْأَعْظَمِ، وَهُوَ إِصْلَاحُ الدِّينِ، وَالْقِيَامُ بِعُبُودِيَّةِ اللَّهِ الَّتِي خَلَقَ لَهَا الْخَلْقَ، وَأَنْ يَجْعَلُوا مَا مَتَّعُوا بِهِ مِنَ النِّعَمِ مَعُونَةً لَهُمْ عَلَى مَا خَلَقُوا لَهُ) لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ، وَأَصْلَحَ لِلْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَلَنَالُوا السَّعَادَتَيْنِ، وَلَسَلِمُوا مِنَ الْفَسَادِ وَانْهِيَارِ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ، وَلَكِنَّهُمْ مَتَّعُوا وَنُعِمُوا وَبَطَرُوا ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: 18]⁽³⁾، إِنَّهُمْ

(1) أخرجه مسلم (148) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم (1924) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(3) ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾، أَيْ: نَسُوا مَا أَنْزَلَتْهُ إِلَيْهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى عِبَادَتِكَ وَحَدِّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (١٨)؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ: هَلَكَى. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَمَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ: أَيْ: لَا خَيْرَ فِيهِمْ.

كانوا قبل مُترفين، ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ [الواقعة: 46، 47]، الآيات (1)، ولهذا نسأل الله العافية.

تجد أمثال هؤُلاءِ السَّاقِطِينَ يَتَهَكَّمُونَ بالجزاء الدُّنْيَوِيِّ والأخْرَوِيِّ، وَيَسْخَرُونَ من المؤمنين القَائِمِينَ بِوَأَجِبَاتِهِمُ الَّذِينَ هم في الحقيقة أعلى النَّاسِ عُلُومًا وأَخْلَاقًا وأَعْمَالًا ومَقَامَاتٍ، وهؤُلاءِ الْمُؤْمِنُونَ لَا يَغْبِطُونَ مَا مُتَّعَ بِهِ هؤُلاءِ الْمُلْحِدُونَ من أَمْوَالٍ وَأَوْلَادٍ، وَيَتَلَوْنَ عند ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦) [المؤمنون: 55، 56]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: 178]، ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 196، 197].

❦ الوجه الثاني والسبعون: [أهل الإلحاد ليس لهم عقل ولا دين]:

إذا أردت أن تَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ أَهْلَ الْإِلْحَادِ ليس عندهم عقلٌ كما لا دين لهم، وأنَّه ليس عندهم إلَّا المَكَابِرَةُ والجُحُودُ في قَدْحِهِم في القديم، أو العَتِيق، أو مَا أَشْبَهَ ذلك من عِبَارَاتِهِم السَّخِيفَةِ؛ كَالرَّجَعِيَّةِ وَشِبْهَهَا، فَاعْرِضْ نَمُودَجًا من تَفَاصِيلِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الدِّينُ، وَيَحْتُّ عَلَيْهِ، وَمَا يُحَذِّرُ عَنْهُ، تَعْرِفْ بِهَا أَنَّ الْمُنْكَرِينَ

(1) قال الإمام ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ عند تفسيره لهذه الآيات: «أَي: كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا مُتَعَمِّينَ مُتَقِيلِينَ عَلَى لَذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، لَا يَلُوتُونَ عَلَى مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ».

﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ﴾ أَي: يُصَمِّمُونَ، وَلَا يَتَوَّعُونَ تَوْبَةً، ﴿عَلَى الْخَنِثِ الْعَظِيمِ﴾ (٤٦) وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ، وَجَعَلَ الْأَوْتَانَ وَالْأَنْدَادَ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

لها في فسادٍ من عقولهم، وانعكاسٍ من آرائهم، وسفاهةٍ من علومهم، وخساسةٍ من أخلاقهم، وأنَّ كلَّ قولٍ أو عقيدةٍ أو خلقٍ أو عملٍ ليس عليه أمرُ الدين فهو مردودٌ شرعاً وعقلاً وفطرةً.

ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء، فالدين الإسلامي (الذي هو دينُ مُحَمَّدٍ ﷺ وجميع الرُّسل) يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والاعتراف بوحداية الله، وتفرده بكلِّ كمالٍ، وتفرده بالخلق، والرِّزق، والنعم الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله ظاهراً وباطناً، والتَّوجُّه إليه وحده، وخوفه ورجائه وحده، والإنابة إليه في جميع النِّوَابِ والمُلمَّات، والشُّكوى إليه في كلِّ المهمَّات، والقيام بحمده وشكره، واللَّهج بذكره ودعائه، والتَّعلُّق به وحده في كلِّ شيءٍ، وترك التَّعلُّق بالمخلوقين.

فهل هذا خيرٌ، أم الكُفر بالله، والجُحود والتَّعطيل لأوصافه، وكُفر نِعَمه، والطُّغيان والاستكبار عن عبادته، وتعلُّق القُلُوب بالمخلوقين رغبةً ورهبةً ورجاءً، كما هو حال المُلحدِين؟!

والدين الإسلامي يدعُو إلى الصِّدق في الأقوال والأفعال، وإلى البرِّ والنُّصح للخلق كُلِّهم، والقيام بحقِّ الوالدين والأقارب، ومنَّ للإنسان بهم تَعَلُّقٌ وصلَّةٌ، ومنَّ لهم حقٌّ عليه، ويأمر بإقام الصَّلَاة، وإيتاء الزَّكَاة، وصيام رمضان، وحجِّ بيت الله الحرام، والقيام بشرائع الدين، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك.

والدين الإسلامي يأمر بالعدل في المعاملات كُلِّها، والقيام بالحقوق كُلِّها، وينهى عن الظُّلم في الدِّماء والأموال والأعراض، والوفاء بالعُهود والعُقود، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها لِيُوفِّيَهَا حَقَّهَا، ويتعد عن شُرورها ومفاسدها

خوفاً من الله، ورجاءً لثوابه.

وأهل الإلحاد يأمرون بضد ذلك، وليس في ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله، وإنما هي تُشبه أفئدة البهائم، بل أضلُّ، فحيث ما دَفَعْتَهُمْ إلى الأغراض الخسيسة والظلم، واغتنام الخيانات، وتضييع الأمانات - اندفعوا إليها، ليس عندهم دينٌ، ولا خُلُقٌ، ولا مراعاةٌ ذمَّةٍ، إنما هي الإباحية المحضة، وليس عندهم خشيةٌ إلَّا من مخلوق أقوى منهم، فهو لاءٍ كالأنعام بل هم أضلُّ، وهؤلاء لَمْ تَنْفَعَهُمْ إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعاً يُجدي.

وبالجملة: الدين الإسلامي يدعو إلى كلِّ خُلُقٍ جميلٍ، وعملٍ صالحٍ، وهدى مستقيمٍ، وطريقٍ قويمٍ، وصالحٍ مُتنوّعٍ، فكلُّ مَنْ خالفه، وَقَعَ في ضِدِّ هذه الأمور الجميلة، وسقط في مهاوي الهلاك والأخلاق الرذيلة، فلقد تَعَسَّ وانتكس مَنْ عَبَّرَ عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التي لا حياة للوجود إلَّا بها بالرجعية، والرُّجوع إلى القديم، والعبادات الوسخة التي هي أكبر مُعَبِّرٍ عن سخافة عُقول مُعَبِّرِيها، وسُقُوطهم في كلِّ رذيلةٍ، وخُلُوقهم من كلِّ فضيلةٍ، ولقد قال إخوانهم السَّابِقُونَ عن القرآن وَمَنْ جاء به: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٥) [الأنعام: 25]، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧) [الأنعام: 7]، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخَذُوكَ إِلَّا هُرُوءًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) [الفرقان: 41]، ﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠) [الأنعام: 10].

❁ الوجه الثالث والسبعون: [غرض الملحدين تنحية الدين عن المتعلمين]:

ذكرنا فيما سبق أنَّ أعظمَ ما يُبطلُ الإلحادَ معرفةُ دين الإسلام والعمل به،

وأنّه بطبيعته وبراهينه وآياته يضمحلّ معه كلّ باطل من كلّ وجه، خصوصاً أقبح الباطل وأشنعه وأشدّه منافاةً للعقل والدين وهو الإلحاد.

وقد عرف أهله هذا منه، وأنّه لا بقاء له مع الدين، فتوسّلوا بتنحية الدين عن المتعلّمين، وأبعدوه عن المدارس، فإنّ لم يتمكّنوا، جعلوا التّعليم في الدين ضعيفاً، أو اسماً بلا مُسمّى.

فهم عند التّمكّن يُنحّون الدين جملةً، ويُدخلون في تعليم المدارس أصول الإلحاد، فيخرج المتعلّمون ملحدين صِرَفاً، فإنّ لم يُمكنوا من إدخال الإلحاد فيها، اجتهدوا في إضعاف علوم الدين، واقتصروا على العلوم العصريّة؛ ليذهب من قلوب الناشئة حبّ الدين، ويسهل توجيههم إلى نبذه والاستبدال به ضده، فإنّ البصيرة في الدين إذا ضعفت، والقلوب إلى غيره توجّهت؛ انهارت الأديان والأخلاق كما هو مشاهدٌ معلومٌ في كلّ المدارس التي على الوصف الذي ذكرنا.

فيتعيّن على المسلمين وعلى ولاة أمورهم أن يعتنوا غاية الاعتناء في علوم الدين وأخلاقه، فإنّ هذا من أفرض الفروض، وبه يحصل كلّ خير، ويندفع أعظم شرّ.

فإنّ الناشئين في المدارس إذا خرجوا منها وقد تمكّنوا من علوم الدين، وصار عندهم بصيرةٌ صحيحةٌ فيه؛ فإنّهم ينفعون أمّتهم، وينفعون غيرهم، وإلّا فليعلموا أنّهم رعاةٌ، وكلّ راع مسؤولٌ عن رعيّته، فهم مسؤولون عن الناشئة المتعلّمين في المدارس، فإذا لم يُثقفوهم ثقافةً دينيّةً، صاروا أكبر سلاح للأعداء على أمّتهم، فكيف إذا انصرف قلوبهم عن الرّغبة في علوم الدين وأخلاقه إلى الاقتداء الضارّ بأعداء الإسلام في علومهم وسلوكهم وعاداتهم، فإنّه ما شاع

الإلحاد في البلاد الإسلامية إِلَّا بهذه الطريقة، فكيف إذا نصرتها قُوَّةُ الوَلَاةِ، وصاروا هم العَوْنُ الأكبر لانحراف المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات، وطرّدوا عنها الدِّينَ أو أضعفوه.

فترجو الله أن يوفّق وِلَاةَ المُسْلِمِينَ المَرْجوع إليهم لهذا الأمر العظيم، الَّذِي خطرُهُ كبيرٌ، وشرُّهُ مُسْتَطِيرٌ، وإلَّا فلا يَلُومُنَّ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ إِذَا خَسِرُوا الدِّينَ والدُّنْيَا، والله المستعان.

❁ الوجه الرابع والسبعون: [الله أعظم من أن يجحد]:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «الرَّبُّ تعالى أعرفُ من أن يُنكر، وأعظم من أن يُجحد؛ ولهذا قالت الرُّسُلُ لَأُمَمِهِمْ: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10]، وهو الغنيُّ بذاته عن جميع الموجودات، فَإِنَّ افتقارَ كُلِّ ما سوى الله هو حكمٌ وصفةٌ ثَبَتَتْ لِمَا سِوَاهُ.

فكُلُّ ما سِوَاهُ - سواء سُمِّيَ مُخْدِثًا، أو مُمَكِّنًا، أو مَخْلُوقًا، أو غير ذلك - هو مُفْتَقِرٌ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، لا يُمكن استغناؤه عنه بوجهٍ من الوجوه، ولا في حالٍ من الأحوال، بل كما أَنَّ غِنَى الرَّبِّ من لوازم ذاتِهِ، ففقر المُمَكِّناتِ من لوازم ذاتِها، وهي لا حقيقة لها إِلَّا إذا كانت موجودةً، فَإِنَّ المعدوم ليس بشيءٍ، فكلُّ ما هو موجودٌ سِوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ دائِمًا حالَ حدوْثِهِ، وحالَ بقاءِهِ، وهذا يوجب افتقاره إِلَيْهِ دائِمًا». انتهى (1).

فَعَلِمَ بهذا أَنَّ جُرْأَةَ المَخْلُوقِ الفَقِيرِ على إنكار الرَّبِّ الغَنِيِّ القائمِ بنفسه،

(1) انظر «منهاج السنة النبوية» (1 / 167).

القائم بكلّ موجودٍ، أو إنكارٍ وُحْدَانِيَّتِهِ، أو حقٍّ من حقوقِهِ من أَسْخَفِ الْجَنَائِاتِ وأَطْمَها، وأنّ هذا المخلوق الفقير من كلّ وجهٍ قد تعدّى حدّه وطوره.

قال الشيخ: «وإذا كانت الرُّسُلُ والأنبياءُ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ - وَهُمْ أُمَّمٌ لَا يُحْصِي عددهم إِلَّا الله - قَدْ أَخْبَرُوا بوحْدَانِيَّةِ الله وَتَفَرُّدِهِ بصفات الكمال، وَهُمْ مُسْتَيَقِنُونَ ذلك، لَا يَرْتَابُونَ فِيهِ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ أَضْعَافٌ أَضْعَافٌ أَيِّ تَوَاتُرٍ قُدِّرَ، قَدْ اتَّفَقَتْ أقوالُهُمْ وأفعالُهُمْ وَهَدَايَتُهُمْ على ذلك، عَلِمَ أَنَّهُ هو الحقُّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ، وما سِوَاهُ باطلٌ». انتهى⁽¹⁾.

الوجه الخامس والسبعون: [العقل مصدق للشرع]:

قال شيخ الإسلام في ردّه قول الفلاسفة وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ في قولهم: «إِنَّ الْعَقْلَ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَى السَّمْعِ»: «وإذا تَعَارَضَ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ؛ وَجَبَ تَقْدِيمُ الشَّرْعِ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ مُصَدِّقٌ لِلشَّرْعِ في كُلِّ ما أَخْبَرَ بِهِ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَجِبُ تَصْدِيقُهُ فيما أَخْبَرَ، وطاعتهُ فيما أَمَرَ، والعقل يدلُّ على صِدْقِ الرَّسُولِ دلالةً عامّةً مُطْلَقَةً». انتهى⁽²⁾.

ووجهُ خُضُوعِ عَقْلِ الْعُقَلَاءِ الْمُعْتَبَرِينَ لِلشَّرْعِ أَنَّهُمْ شَاهَدُوا مِنْ بَرَاهِينِ الرِّسَالَةِ وآيَاتِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ ما يَضْطَرُّهُمْ اضْطِرَارًا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَلَوْ قَدَّمْنَا شَيْئًا مِمَّا قِيلَ إِنَّهُ مَعْقُولٌ عَلَى ما جَاءَ بِهِ

(1) انظر «درء تعارض العقل والنقل» (1 / 76)، الذي قال عنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «نُونِيَّتِهِ» (ص 230):

واقراً كتابَ «العقل والنقل» الذي ما في الجُود له نَظِيرٌ ثَـانٍ

(2) انظر «درء تعارض العقل والنقل»، وكذلك انظر «الصواعق المرسلّة» للإمام ابن القيم (3 / 807).

الرَّسُول؛ لَعَلَّمَنَا أَنَّهُ مَعْقُولٌ فَاسِدٌ؛ لئَلَّا يَلْزَمَ تَنَاقُضُ قَضَايَا الْعَقْلِ.

فَأَعْظُمُ الْقَضَايَا الَّتِي حَكَمَ بِهَا الْعَقْلُ: قَضِيَّةُ صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ، فَمَتَى أَنْكَرَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ هَذِي الْقَضِيَّةَ الْكُبْرَى الْيَقِينِيَّةَ، قَطَعْنَا أَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ لِلْعَقْلِ، كَمَا أَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ لِلشَّرْعِ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ الْعَقْلَ دَلٌّ دَلَالَةً عَامَةً مُطْلَقَةً عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ خَبَرٍ وَحَكْمٍ؛ كَانَ إِيرَادُ الْمُرَادِ عَلَى بَعْضِ جُزْئِيَّاتِ الشَّرِيعَةِ مَعْلُومِ الْفَسَادِ، وَكَانَ عِلْمُنَا الْعَامُ بِصِدْقِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَقْضِي عَلَى جَمِيعِ الْجُزْئِيَّاتِ.

وَنِهَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّ يَكُونَ الَّذِي وَقَعَ فِي الْإِشْكَالِ مِنَ الْمُشْتَبَهَاتِ، وَالْمُشْتَبَهَاتِ يَتَعَيَّنُ رَدُّهَا إِلَى الْمَحْكَمَاتِ، وَهُوَ الْأَصْلُ الْعَظِيمُ الْمُحْكَمُ الَّذِي تَوَارَدَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ الْبَرَاهِينِ الْيَقِينِيَّةِ، وَهُوَ صِدْقُ الرَّسُولِ، وَصِحَّةُ مَا جَاءَ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الشَّيْخُ: «وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِذَا عَلِمَ الرَّجُلُ بِالْعَقْلِ أَنَّ هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِشَيْءٍ، وَوَجَدَ فِي عَقْلِهِ مَا يَنَازِعُهُ فِي خَبَرِهِ؛ كَانَ عَقْلُهُ يُوجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْلَمَ مَوَارِدَ النَّزَاعِ إِلَى مَنْ هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ، وَأَلَّا يُقَدِّمَ رَأْيَهُ عَلَى قَوْلِهِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ عَقْلَهُ قَاصِرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ أَعْلَمُ بِاللَّهِ، وَأَسْمَاءِهِ، وَصِفَاتِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْهُ، وَأَنَّ التَّفَاوُتَ الَّذِي بَيْنَهُمَا فِي الْعِلْمِ بِذَلِكَ أَعْظَمُ مِنَ التَّفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَ الْعَامَّةِ وَبَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالطَّبِّ.

فَإِذَا كَانَ عَقْلُهُ يُوجِبُ أَنْ يَنْقَادَ لِطَبِيبٍ يَهُودِيٍّ فِيمَا أَخْبَرَهُ بِهِ مِنْ مُقَدَّرَاتِ الْأَغْذِيَةِ وَالْأَشْرَبَةِ وَالْأَضْمَدَةِ وَالْمُسَهَّلَاتِ، وَاسْتِعْمَالِهَا عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ - مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْكُلْفَةِ وَالْأَلَمِ - لَظَنَّهُ أَنَّ هَذَا أَعْلَمُ بِهَذَا مِنِّْي، وَأَنِّي إِذَا صَدَّقْتَهُ كَانَ أَقْرَبَ لِحُصُولِ الشِّفَاءِ لِي، مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّ الطَّبِيبَ يَخْطِئُ كَثِيرًا، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنْ

النَّاسُ لَا يَشْفَى بِمَا يَصِفُهُ الطَّبِيبُ، بَلْ يَكُونُ اسْتِعْمَالُهُ لِمَا يَصِفُهُ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقْبَلُ قَوْلَهُ وَيُقَلِّدُهُ، وَإِنْ كَانَ ظَنُّهُ وَاجْتِهَادُهُ يَخَالِفُ وَصْفَهُ، فَكَيْفَ حَالُ الْخَلْقِ مَعَ الرَّسُلِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَالرَّسُلُ صَادِقُونَ مُصَدِّقُونَ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُمْ عَلَى خِلَافِ مَا أَخْبَرُوا بِهِ قَطُّ، وَأَنَّ الَّذِينَ يَعَارِضُونَ أَقْوَالَهُمْ بِعُقُولِهِمْ عِنْدَهُمْ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ مَا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا ذُو الْجَلَالِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَعَارِضَ مَا لَمْ يَخْطِئْ قَطُّ بِمَا لَمْ يُصِبْ فِي مَعَارِضَةٍ لَهُ قَطُّ؟!». انتهى (1).

وَقَالَ أَيْضًا: «وَالَّذِينَ ادَّعَوْا فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ أَنَّ لَهُمْ مَعْقُولًا صَرِيحًا يَنَاقِضُ الْكِتَابَ، قَابِلُهُمْ آخَرُونَ مِنْ ذَوِي الْمَعْقُولَاتِ، فَقَالُوا: إِنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ مَعْلُومٌ بَطْلَانُهُ بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ، فَصَارَ مَا يُدَّعَى مَعَارِضَةً لِلْكِتَابِ مِنَ الْمَعْقُولِ، لَيْسَ فِيهِ مَا يَجْزِمُ بِهِ مَعْقُولٌ صَحِيحٌ: إِمَّا بِشَهَادَةِ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ، وَشَهَادَةِ الْأُمَّةِ، وَإِمَّا بِظُهُورِ تَنَاقُضِهِمْ ظَهْرًا لَا ارْتِيَابَ فِيهِ، وَإِمَّا لِمَعَارِضَةِ آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَعْقُولَاتِ لَهُمْ، بَلْ مَنْ تَدَبَّرَ مَا يُعَارِضُونَ بِهِ الشَّرْعَ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ، وَجَدَ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ الصَّرِيحِ بَطْلَانُهُ.

وَالنَّاسُ إِذَا تَنَازَعُوا فِي الْعُقُولِ لَمْ يَكُنْ قَوْلُ طَائِفَةٍ لَهَا مَذْهَبٌ حُجَّةً عَلَى أُخْرَى، بَلْ يُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْفِطْرِ السَّلِيمَةِ الَّتِي لَمْ تَتَغَيَّرْ بِاعْتِقَادٍ يُغَيِّرُ فِطْرَتَهَا وَلَا هَوًى.

وَإِذَا كَانَ فُحُولُ النَّظَرِ وَأَسَاطِينُ الْفَلَسَفَةِ الَّذِينَ بَلَّغُوا فِي الذِّكَاءِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْغَايَةِ، وَهُمْ لَيْلَهُمْ وَنَهَارُهُمْ يَكْدَحُونَ فِي مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْعَقْلِيَّاتِ، ثُمَّ لَمْ يَصِلُوا فِيهَا إِلَى مَعْقُولٍ صَرِيحٍ يَنَاقِضُ الْكِتَابَ، بَلْ إِمَّا إِلَى حَيْرَةٍ وَارْتِيَابٍ، وَإِمَّا إِلَى اخْتِلَافٍ

(1) انظر «درء تعارض العقل والنقل» (1/ 80).

بَيْنَ الْأَحْزَابِ، فَكَيْفَ غَيْرَ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَهُمْ فِي الذِّكَاةِ وَالذَّهْنِ وَمَعْرِفَةِ مَا سَلَكَهُ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ؟!

فهذا وأمثاله مِمَّا يَبِينُ أَنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْكِتَابِ وَعَارَضَهُ بِمَا يَنَاقِضُهُ لَمْ يَعَارِضْهُ إِلَّا بِمَا هُوَ جَهْلٌ بَسِيطٌ، أَوْ جَهْلٌ مُرَكَّبٌ⁽¹⁾:

فَالْأَوَّلُ: ﴿كَرَّابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: 39] الآية.

وَالثَّانِي: ﴿كَظَلُمْتَ فِي بَحْرِ لَيْحٍ﴾ [النور: 40] الآية.

وَأَصْحَابُ الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ فِي نُورٍ عَلَى نُورٍ⁽²⁾.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينَ دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُبَلِّغُونَ عَنْ اللَّهِ مِنَ الْخَبَرِ وَالطَّلَبِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي خَبَرِهِمْ عَنِ اللَّهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَطَا كَمَا اتَّفَقَ عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ الْمُقَرَّرِينَ بِالرُّسُلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ.

فَوَجَبَ أَنْ كُلُّ مَا يَخْبَرُ بِهِ الرَّسُولُ عَنِ اللَّهِ صِدْقٌ وَحَقٌّ، لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مُنَاقِضٌ لِلدَّلِيلِ عَقْلِيٍّ وَلَا سَمْعِيٍّ، فَمَتَى عَلِمَ الْمُؤْمِنُ بِالرَّسُولِ أَنَّهُ أَخْبَرَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ - جَزَمَ جَزْمًا قَاطِعًا أَنَّهُ حَقٌّ.

وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ، وَأَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَعَارِضَهُ

(1) الْجَهْلُ الْبَسِيطُ هُوَ: أَنْ تَجْهَلَ فَقَطْ، وَلِذَا سُمِّيَ بَسِيطًا.

وَأَمَّا الْمُرَكَّبُ فَهُوَ: أَنْ تَجْهَلَ، وَتَجْهَلَ أَنَّكَ تَجْهَلَ، لِذَلِكَ سُمِّيَ مُرَكَّبًا؛ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ جَهْلَيْنِ: جَهْلٍ بِالْأَمْرِ، وَجَهْلٍ بِالْجَهْلِ بِهِ، وَلِذَا قَالَ الْقَائِلُ:

لَمَّا جَهِلْتَ جَهِلْتَ أَنَّكَ جَاهِلٌ جَهْلًا وَجَهِلَ الْجَهْلُ دَاءٌ مُعْضِلٌ

(2) انظر «درء تعارض العقل والنقل» (1/ 97).

دليل قطعي، ولا عقلي، ولا سمعي، وأنَّ كلَّ ما ظنَّ أنَّه عارضه من ذلك فإنَّما هو حُججٌ داحضةٌ، وشُبَّهٌ من جنسِ شُبَّه السُّوفسطائية.

وإذا كانَ العقلُ العالمُ بِصِدْقِ الرِّسُولِ قَدْ شَهِدَ لَهُ بِذَلِكَ، وأنَّه يمتنع أن يُعارض خبره دليلٌ صحيحٌ، كانَ هذا العقلُ شاهداً بأنَّ كلَّ ما خالف خبر الرِّسُولِ فهو باطلٌ، فيكونَ هذا العقلُ والسَّمْعُ جميعاً قَدْ شَهِدَا بِبُطْلانِ العقلِ المُخالفِ للسَّمْعِ». انتهى⁽¹⁾.

وقال رَحِمَهُ اللهُ حينَ تكلَّم عن الفلاسفة: «ثُمَّ إِنَّه لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَعْقُولِ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ أَحَدَ الطَّرْفَيْنِ، فَيَكْفِي فِي ذَلِكَ إِخْبَارُ الرُّسُلِ عَنِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَحُدُوثِ هَذَا الْعَالَمِ.

وَالْفَلَسَفَةُ الصَّحِيحَةُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْمَعْقُولَاتِ الْمَحْضَةِ تُوجِبُ عَلَيْهِمْ تَصْدِيقَ الرُّسُلِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَتُبَيَّنَ أَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِطَرِيقٍ يَعْجِزُونَ عَنْهَا، وَأَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْمَعَادِ، وَمَا يُسْعِدُ النُّفُوسَ وَيُشْقِيهَا مِنْهُمْ.

وَتَدُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الرُّسُلَ كَانَ سَعِيداً فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ كَذَّبَهُمْ كَانَ شَقِيئاً فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّهُ لَوْ عَلِمَ الرَّجُلُ مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ مَا عَسَى أَنْ يَعْلَمَ، وَخَرَجَ عَنِ دِينِ الرُّسُلِ؛ كَانَ شَقِيئاً، وَأَنَّ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِحَسَبِ طاقته كَانَ سَعِيداً فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ سَلَفَهُمْ أَكْثَرُوا الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِنْ آثَارِ الرُّسُلِ مَا يَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَمَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ، وَكَانَ الشُّرْكُ مُسْتَحْذَوْاً عَلَيْهِمْ، وَكَانَ مُنْتَهَى عَقْلِهِمْ أُمُوراً عَقْلِيَّةً كُلِّيَّةً؛ كَالْعِلْمِ بِالْوُجُودِ الْمَطْلُوقِ، وَانْقِسَامِهِ إِلَى عِلَّةٍ وَمَعْلُولٍ، وَجَوْهَرٍ

(1) انظر «منهاج السنة النبوية» (1/ 262، 263)، و«دقائق التفسير» (2/ 229).

وعرض، وتقسيم الجواهر ثم تقسيم الأعراض، وهذا هو عندهم الحكمة العليا والفلسفة الأولى، ومنتهى ذلك العلم بالوجود المطلق الذي لا يوجد إلا في الأذهان دون الأعيان، ليس فيها علمٌ بموجودٍ مُعَيَّن؛ لا بالله وبملائكته، ولا بغير ذلك، وليس فيها مَحَبَّةٌ لله، ولا عبادةٌ له، فليس فيها علمٌ نافعٌ، ولا عملٌ صالحٌ، ولا يُنْجِي النفوس من عذاب الله، فضلاً عن أن يُوجِبَ لها السَّعادة»⁽¹⁾.

❁ الوجه السادس والسبعون: [وجوب طاعة الرسول ﷺ لثبوت صدقه]:

قال شيخ الإسلام: «من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه يجب على الخلق الإيمان بالرسول إيماناً مطلقاً جازماً عاماً بتصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته في كل ما أمر، وأن كل ما عارض ذلك فهو باطل، وأن من قال: (يجب تصديق ما أدركته بعقلي، ورد ما جاء به الرسول لرأيي وعقلي، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول مع تصديقي بأن الرسول صادق فيما أخبر به)، فهو متناقض، فاسد العقل، ملحد في الشرع، وأما من قال: (لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي)، فكفره ظاهر، وهو ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ. ❁ [الأنعام: 124].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ﴾ يَسْتَهْزِءُونَ ❁ (٨٣) [غافر: 83].

(1) انظر «الرد على المنطقيين» (ص 139 / 140).

وَمَنْ عَارِضَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ بِرَأْيِهِ، فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴿[غافر: 34، 35].﴾ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ ﴿[غافر: 56].﴾

والسُّلْطَانُ هُوَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَكُلُّ مَنْ عَارِضَ كِتَابَ اللَّهِ الْمُنَزَّلَ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ نَاسِخًا لَهُ؛ أَوْ مُفَسِّرًا لَهُ، كَانَ قَدْ جَادَلَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُ. انتهى (1).

﴿الوجه السابع والسبعون: [جميع الأديان متفقة على إثبات ربوبية الله]:﴾

جميع الأمم (أهل الأديان من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم حتى المشركين) مُتَّفِقُونَ عَلَى إِثْبَاتِ رَبُوبِيَّةِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَتَمَّتْهُمْ فِي هَذَا الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلُونَ وَأَهْلُ الْهُدَى مِنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ أَهْلُ الْعُلُومِ الْغَزِيرَةِ، وَالْعُقُولِ الْوَافِيَةِ، وَالْمَعَارِفِ الصَّافِيَةِ، الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالْآخِرِينَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ، مُتَّفِقُونَ عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ، قَدْ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ، وَسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ بِهِ، وَصَارَ فِي قُلُوبِهِمْ أَكْبَرُ الْحَقَائِقِ وَأَصَحُّهَا وَأَوْضَحُّهَا.

وَحَالَفَهُمْ مِنْ هَذَا شِرْذِمَةٌ مِنْ زَنَادِقَةِ الدَّهْرِيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24].

(1) انظر «درء تعارض العقل والنقل» (1/97)، و«الصواعق المرسلة» للإمام ابن القيم (3/901).

وَسَلَكَ سَبِيلَهُمْ زَنَادِقَةُ الْمَادِيِّينَ، وَهُمْ لَمْ يَنْكُرُوا ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ دَلَّاهُمْ عَلَيْهِ، وَلَا سَمِعَ، وَلَا عَقَلَ، وَلَا فِطْرَةٍ، إِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ اسْتِعْبَادَاتٍ وَجُحُودٍ وَمَكَابِرَاتٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَأَقْوَالُهُمْ فِيمَا يُثْبِتُونَ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ وَالْقَوْلِ فِي الْعِلَلِ غَيْرِ مُتَّفَقَةٍ، كُلُّ فَرِيقٍ بِنَظَرِيَّاتِهِمُ الْخَاطِئَةِ فَرَحُونَ، وَلَا إِخْوَانِهِمْ مِنَ الزَّنَادِقَةِ مُعَارِضُونَ، فَدَعَّاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْصَمُونَ، وَفِي اضْطِرَابِهِمْ وَتَخَالُفِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَفِي غَيِّهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَسَفَاهَةِ عُقُولِهِمْ وَمَا انْتَهَتْ إِلَيْهِ مَعَارِفُهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ يَمْرَحُونَ، وَاحْمَدَ اللَّهُ الَّذِي عَافَاكَ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ الشَّنْعَاءِ، وَالطَّامَّةِ الْكُبْرَى، وَقُلَّ مُعْتَرِفًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ مُتَّبِعًا بِفَضْلِ اللَّهِ ⁽¹⁾: آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبِهِ السَّمَاوِيَّةِ، وَأَمَنْتُ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَشَهِدْتُ بِمَا شَهِدْتُ بِهِ لِنَفْسِهِ، وَشَهِدْتُ بِهِ خِيَارُ خَلْقِهِ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 53].

❁ الوجه الثامن والسبعون: [ضرب الله الأمثال لتقرير التوحيد والرسالة

والمعاد]:

إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي كِتَابِهِ لِتَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ، وَتَقْرِيرِ الرِّسَالَةِ وَالْمَعَادِ، وَإِبْطَالِ قَوْلِ مَنْ يَنْفِيهَا أَوْ يَقْدَحُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَالْأَمْثَالُ أَقْيَسُ عَقْلِيَّةً تُنَبِّهُ الْعُقُولَ وَالْفِطَرَ عَلَى تَقْرِيرِ الْحَقِّ وَالاعْتِرَافِ بِهِ، وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ، وَكُلُّهَا تُبْطِلُ أَقْوَالَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ مُشْرِكِينَ وَمُلْحِدِينَ وَمُنْحَرِفِينَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ

(1) التبجح هنا بمعنى: التفاخر، والتباهي، والتحدث بالنعمة.

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ [الحج: 31]، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73]، وقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: 29]، إلى غير ذلك من الأمثلة المُقرَّرة لهذه الأصول العظيمة، المُبطلَة لأقوال المُبطلين والمُعطلين، وكذلك ما ضربه الرسول مُحَمَّدٌ ﷺ من الأمثلة المُقرَّرة لأصول الدين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والكِتَابُ والسُّنَّةُ يدلُّ بالأخبار تارةً، ويدلُّ بالبيِّنة تارةً، والإرشاد والبيان للأدلة العقلية تارةً، وخلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية قد جاء به الكتاب والسُّنة مع زياداتٍ وتكميلاتٍ لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ بخطابه، فكلُّ ما قد جاء به الرسولُ من الأدلة العقلية والمعارف اليقينية فوق ما في عُقول جميع العقلاء من الأوَّلين والآخرين». انتهى (1).

وقال أيضًا: «معلومٌ بالسَّمْعِ اتَّصافُ اللهِ بالأفعال الاختيارية القائمة به؛ كالاستواء إلى السماء (2)، وعلى العرش (3)، والقبض، والطِّي (1)،

(1) انظر «منهاج السنة النبوية» (2 / 57).

(2) قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: 29].

(3) قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾

[الأعراف: 54].

والإتيان⁽²⁾، والمَجِيء⁽³⁾، والنُّزول⁽⁴⁾، ونحو ذلك، بل والخلق والإحياء والإماتة، فإنَّ الله وَصَفَ نفسه بالأفعال اللازمة والمتعدّية، والفعل المتعدّي مستلزمٌ للفعل اللازم، فإنَّ الفعل لا بدَّ له من فاعلٍ؛ سواء كان متعدّيًا إلى مفعولٍ، أو لم يكن، والفاعل لا بدَّ له من فعلٍ؛ سواء كان فعله مُقتصرًا عليه، أو متعدّيًا إلى غيره، والفعل المتعدّي إلى غيره لا يتعدّى حتّى يقوم بفاعله؛ إذ كان لا بدَّ من الفاعل، وهذا معلومٌ سَمْعًا وَعَقْلًا، والله تعالى حَيٌّ قَيُّومٌ لَمْ يَزَلْ مَوْصُوفًا بِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ، فَعَالٌ لِّمَا يَشَاءُ». انتهى⁽⁵⁾.

❀ الوجه التاسع والسبعون: [الله يقول الحق، ويحكم بالعدل، ويهدي

السييل]:

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4]، وقال:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٢٢) [الفرقان: 33].

=

(1) قال جل جلاله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٧) [الزمر: 67].

(2) قال ﷺ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ

رُجِعُ الْأُمُورُ﴾ (١١) [البقرة: 210].

(3) قال جل جلاله: ﴿وَجَاءَ رُؤُكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ (٢٢) [الفجر: 22].

(4) أخرج البخاري (1145) ومسلم (758) عن أبي هريرة ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا

تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ

لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟».

(5) انظر «درء تعارض العقل والنقل» (1/ 241).

فأخبر أنه يقول الحق وهو الصّدق فيما أخبر به، والعدل فيما حَكَمَ به، وأنه يهدي السبيل⁽¹⁾، فيبين لعباده البراهين والأدلة الدالة على الحق، ويرى العباد آياته في الآفاق، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق⁽²⁾، وما أخبر به من الحق، ودلّ عليه بالبراهين من العلوم النافعة والمعارف الصادقة مما يُقرّر به جميع الأصول التي هدى بها عباده على السنة رُسله، وما أجاب به كل مُبطل أورد الشبهة على الحق الجواب القاطع لشبهته، المُبطل لحجته، فهو ظاهر واضح للعباد، وهو من الحقائق التي لا يمكن تغييرها، ولا تبديلها، ولا قيام علم صحيح ينافيها، بل كل ما خالفها وناقضها علمنا بطلانه على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل.

أما على وجه الإجمال: فالله يقول الحق: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا﴾ [الأنعام: 115]، فكل ما ناقض ذلك فهو باطل، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: 32]؟!

وأما على وجه التفصيل: فما يأتي المُبطلون بمثلٍ يقدحون فيه بالحق إلا أبطله الله، وذكر من البراهين السَّمعيّة والعقليّة ما يبطله. وقد تتبّع العلماء الأعلام جميع ما أورده المُبطلون مسألةً مسألةً، فوضّحوا بطلانها من جهة الدلالة الشرعيّة السَّمعيّة، ومن جهة الدلالة العقليّة، وتحذّوا أهل الباطل تحذّيًا صحيحًا أنهم لا يأتون بمثلٍ يقدحون فيه بالحق إلا أبطلوه بالبراهين اليقينيّة، والله أعلم.

(1) قال جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4].

(2) قال ﷺ: ﴿سَرُّهُمْ أَيْنَتَانِي الْآفَاقُ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

❁ الوجه الثمانون: [استحالة وجود الهين]:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]، وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١١) [المؤمنون: 91].

وهذا برهانٌ عقليٌّ قاطعٌ صَوَّرَهُ اللهُ لِعُقُولِ الْعُقَلَاءِ، وَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ، وَتَفَرُّدِهِ بِالتَّدْبِيرِ، فَإِنَّهُ لَوْ فُرِضَ مَعَهُ إِلَهٌ آخَرُ؛ فَإِمَّا أَنْ يَعَارِضَهُ وَيَقَاوِمَهُ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَحْصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا، فَيَكُونُ هُوَ الرَّبُّ، أَوْ يَمْتَنَعُ مُرَادُ كُلِّ مِنْهُمَا، وَهُوَ مُحَالٌ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عَجْزِ كُلِّ مِنْهُمَا، أَوْ يُوجَدُ مُرَادُ الْجَمِيعِ، وَهَذَا مُحَالٌ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي عَجْزَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ الْإِنْفِرَادِ لَا مَعَ الْجَمَاعَةِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُنْفَرِدَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، فَإِذَا كَانَ مَا ادَّعَاهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مِشَارَكَةِ غَيْرِ اللهِ مَعَ اللهِ يَقْتَضِي فِي الْعَقْلِ الْمُحَالِ وَخَرَابِ الْوُجُودِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ الدَّهْرِيِّينَ الْمَادِيِّينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ وَيَقْتَرُونَ أَنَّ الطَّبِيعَةَ هِيَ الَّتِي أَوْجَدَتْ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ؛ ذَوَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا وَصُورِهَا، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا حَيَاةَ لَهَا، وَلَا عِلْمَ، وَلَا قُدْرَةَ، هَلْ فَوْقَ هَذَا الْمُحَالِ مُحَالٌ؟ وَهَلْ يَتَصَوَّرُ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا الضَّلَالِ؟

❁ الوجه الحادي والثمانون: [آيات الله المشهودة وآياته المسموعة مبطلّة

لكل شرك والحاد وجعود]:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴿٢﴾ [السجدة: 4]، ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2].

فهاتان الآيتان العظيمتان اللتان تجمعان آيات كثيرة، وبراهين قاطعة توصل إلى كمال العلم واليقين، وصحة ما جاء به الأنبياء والمرسلون، وتبطل كل شرك وإلحاد وجحود آياته المشهودة وآياته المسموعة، فمن تأمل هذه المخلوقات وما احتوت عليه من التدابير الحكيمة، وتفكر في آيات الله القرآنية التي فصلها الله أحسن تفصيل، وأحكم فيها الأحكام، وأصل الأصول المحكمة، وجعلها هداية عامة، ورحمة شاملة، ودعوة إلى كل خير وصلاح، وسبباً إلى كل رشد وهدى وفلاح، علم علماً لا يمتري فيه أن الذي دبر المخلوقات، وفصل الآيات، هو الرب العظيم الذي تتضاءل عظمة المخلوقات بأسرها عند عظمته، وأنه المتوحد بالربوبية والألوهية وسائر صفات الكمال، وأن رُسُلَه صادقون مُصدّقون، وأن أعداء الرُّسل في مكابرة ومباهاتٍ وعنادٍ، وفي غيٍّ وجهلٍ وضلالٍ.

ففي كل شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد
أفي الله شكُّ فاطر السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَىٰ أَحْسَنِ خَلْقٍ، وَأَبْدَعَهُ، وَأَجْمَعَهُ
لجميع المحاسن، وأدله على حكمة خالقه، وعظمته، وكبريائه، ووحدانيته،
فتبارك الله ربُّ العالمين.

وقد ألزم الله المكذِّبين، وقرَّره باعترافهم واعتراف الخلق كلِّهم بتفرد الله بالخلق والتدبير، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ [يونس: 31]، إلى قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [يونس: 35].

كما أخبر أن في إنزال القرآن يُتلى عليهم كفاية تامة عن جميع البراهين، كفاية لتقدير الحق وإبطال كل باطل، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: 51].

❁ الوجه الثاني والثمانون: [خروج الملحدين عن العقليات الصحيحة]:

نذكر كلاماً جامعاً مفصلاً يعترف به كل من له معقول صحيح في القول في المعقولات قاله شيخ الإسلام، به يتضح غاية الاتّصاح أن جميع الملحدين خرجوا عن العقليات الصحيحة، وأنه ليس معهم إلا مجرد دعاوٍ باطلة.

قال رحمه الله: «المعقول هو المعقول الصريح الذي يعرفه الناس بفطرهم التي فطروا عليها من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين، واختلاف المختلفين، أعني: اختلاف التنوع لا اختلاف التّضاد والتّباين، فإن لفظ الاختلاف يُراد به هذا وهذا، وهذه المعقولات في العلميات هي التي ذم الله من خالفها بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٠﴾ [الملك: 10].

وأما ما يُسمّيه بعض الناس: «معقولات»، ويخالفه فيه كثير من العقلاء؛ فليس هذا هو العقليات التي يجب لأجلها ردُّ الحسّ والسمع، وينبني عليه علوم بني آدم، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية تُردُّ إلى معقولاتٍ بديهيةٍ أوليةٍ، بخلاف العقليات الصريحة، فإن هذا معلومٌ بفطرة الله.

فإذا جاء في الحسّ أو في الخبر الصحيح ما يظنُّ أنه يخالف ذلك، علم أنه غلط، فكلُّ من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه

وَقَعَ لَهُ غَلْطٌ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِيمَا يَشْهَدُهُ فِي الْحَسِّ الْبَاطِنِ أَوْ الظَّاهِرِ، لَكِنَّ
الْغَلْطَ وَقَعَ فِي ظَنِّهِ الْفَاسِدِ الْمُخَالَفِ لَصَرِيحِ الْعَقْلِ، لَا فِي مُجَرَّدِ الْحَسِّ، فَإِنَّ
الْحَسَّ لَيْسَ فِيهِ عِلْمٌ بِنَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ.

والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - مَعْصُومُونَ، لَا يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ⁽¹⁾، وَلَا يَنْقُلُونَ عَنْهُ إِلَّا الصِّدْقَ، فَمَنْ ادَّعَى فِي أَخْبَارِهِمْ مَا يُنَاقِضُ صَرِيحَ
الْمَعْقُولِ كَانَ كَاذِبًا، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَعْقُولُ لَيْسَ بِصَرِيحٍ، أَوْ ذَلِكَ
الْمَنْقُولُ غَيْرُ صَحِيحٍ، فَمَا عُلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا بِهِ، يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَقْلِ مَا
يُنَاقِضُهُ، وَمَا عُلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْعَقْلَ حَكَمَ بِهِ، يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي أَخْبَارِهِمْ مَا
يُنَاقِضُهُ. انتهى⁽²⁾.

وهذا تفصيلٌ عظيمٌ يعترف به جميع أذكياء العقلاء المُنصفين، وَيَتَحَدَّى بِهِ
الْمُؤْمِنُونَ (أهل العلم) كُلَّ مُلْحِدٍ وَمَارِقٍ يَزْعُمُ خِلَافَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمَسَائِلِ،
وَقَدْ تَكَفَّلَ بِهَذَا التَّحَدِّيِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ هَذَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ فِي كِتَابِهِ «الْعَقْلُ

(1) قَالَ اللَّهُ ﷻ عَنْ كَلِمَتِهِ مُوسَى ﷺ: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝١٠٥﴾ [الأعراف: 104، 105].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا عَنْ رُوحِهِ وَكَلِمَتِهِ عِيسَى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝١٧١ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧٢﴾ [المائدة: 117].

وَقَالَ ﷺ عَنْ حَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 1-4].

(2) انظر «الجواب الصحيح» (4 / 395).

والنقل»⁽¹⁾، وأبطل كل مسألة أصولية أو فروعية زعم بعض المتحذلقين مُخالفتها للعقل، وبَيَّن أن العقل الصريح موافق للنقل الصحيح في جميع المسائل والدلائل.

والحمد لله على شرعه الكامل، وخلقِه الحسن؛ فإنه تَمَّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، وأحسن منه حديثاً، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: 7]، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 88].

﴿ الوجه الثالث والثمانون: [الملحدون جاهلون معاندون]:

قَدْ تَقَرَّرَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ أَهْلَ الْجُحُودِ وَالْإِلْحَادِ لَمْ يَصِلُوا فِي عُلُومِهِمْ إِلَّا إِلَى جَهْلٍ مُرَكَّبٍ، أَوْ جَهْلٍ بَسِيطٍ، أَوْ جُحُودٍ مَعَ الْعِنَادِ؛ لِأَنَّ رُؤْسَاءَهُمْ وَأَسَاطِينَهُمْ أَهْلَ الذِّكَاءِ وَالْفُطْنَةِ الَّذِينَ أَفْنَوْا أَوْقَاتَهُمْ فِي هَذِهِ الْبُحُوثِ لَمْ يَصِلُوا إِلَى يَقِينٍ تَطْمِئُنُّ لَهُ قُلُوبُهُمْ، بَلْ إِمَّا إِلَى حَيْرَةٍ وَارْتِيَابٍ، وَإِمَّا إِلَى اخْتِلَافٍ كَثِيرٍ وَاضْطِرَابٍ، وَإِمَّا إِلَى مَكَابِرَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَحْزَابِ، كَمَا عَرَفَ ذَلِكَ مِنْ مَقَالَاتِهِمْ، فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ هُمُ الرُّؤْسَاءُ، فَكَيْفَ بِمُقَلِّدِيهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا عَشْرَ مِئَاتِهِمْ فِي الذِّكَاءِ وَالْفُطْنَةِ وَالبَحْثِ، فَهُمْ كَمَا قَالَ عَنْهُمْ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ...﴾ [النور: 39] إلى آخر الآيات.

والمؤمنون بالله وكتبه ورُسُلُه على نورٍ من ربِّهم، وبقين من إيمانهم؛ حيث بنوا علومهم ومعارفهم وإيمانهم وأعمالهم على الأصول الصحيحة الثابتة،

(1) أي: كتاب «درء تعارض العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهُ.

وهي نُصُوص الكُتُب المُنزَلة من السَّماء، ونُصُوص الأنبياء وآيات الله في الأنفس والآفاق والعُقُول السَّليمة والفِطَر المُستَقِمة، ففازوا بخير الدُّنيا والآخرة، ورجع الآخرون بالصَّفقة الخاسرة.

فنسأل الله الرَّبَّ الكريم أن يرزقنا علماً و يقيناً وإيماناً وطمأنينةً به وبذكره، وسُلوَكا للصِّراط المُستَقِيم المُشتمل على العلم بالحقِّ، والعمل به، الموصول إلى كلِّ خيرٍ، وألَّا يُزيغ قُلُوبنا بعد إِذْ هَدانا، ويهب لنا من لدنه رحمةً؛ إِنَّه هو الوَهَّاب.

ونسأله ونرجوه أن ينصر دينه، وكتابه، ورُسله، وعبادَه المؤمنين، وأن يُصَلِّي على رسوله مُحَمَّدٍ ﷺ أَفْضَلَ صَلَاةٍ وَأَزْكَاهَا وَأَتَمَّهَا، وَيُسَلِّمَ عليه تسليماً كثيراً، هو وجميع الأنبياء والمرسلين، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ طَبَقَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، والحمد لله الَّذِي بنعمته تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَتَحْصُلُ الْبَرَكَاتُ⁽¹⁾.

قال ذلك وكتبه

العبد الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

وذلك في 14 رجب سنة 1372 هـ.

(1) وكان الفراغ من تحقيق هذا السُّفَرِ العَظِيمِ النَّافِعِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ عَصْرَ يَوْمِ الْخَمِيسِ 2 ذُو الْقَعْدَةِ سَنَةِ 1434 هـ، الموافق 28 أغسطس 2014 م.



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

3.....	مقدمة التحقيق
7.....	ترجمة العلامة الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ
14.....	مقدمة المؤلف
17.....	الوجه الأول: كلامهم أشبه بكلام الجهلة والضلال
19.....	الوجه الثاني: في آثار الأنبياء والمرسلين غناء عن كلام هؤلاء
19.....	الوجه الثالث: أرسطو وذويه في العلم الإلهي أقل الناس نصيباً في معرفة العلم الإلهي
20.....	الوجه الرابع: فساد قوله: «فليستحدث لنفسه فطرة أخرى»؟
22.....	الوجه الخامس: وجوب التصديق بما أخبر به الرسول
23.....	الوجه السادس: الوصية باستحداث فطرة أخرى مخالفة لما بعث الله به رسله ...
23.....	الوجه السابع: وصية أرسطو تتضمن محو العلوم والمعارف والإيمان
26.....	الوجه الثامن: بطلان هذا الكلام شرعاً وعقلاً
27.....	الوجه التاسع: عودة هذا الأصل إلى محوماً في القلوب من كل علم
28.....	الوجه العاشر: أيهما أولى؟
29.....	الوجه الحادي عشر: معاندتهم هؤلاء لله أعظم معاندة
30.....	الوجه الثاني عشر: محو العلوم الصحيحة من القلوب غير ممكن

- الوجه الثالث عشر: المقصود من هذا الأصل: الكفر والانحلال 31
- الوجه الرابع عشر: الله لا يحب الجهل، ولا الشك 32
- الوجه الخامس عشر: الحق يمحق الباطل 33
- الوجه السادس عشر: الأمور اليقينية يستحيل أن تقدح فيها الشبهات 33
- الوجه السابع عشر: مناط السعادة فيما جاءت به الرسل 34
- الوجه الثامن عشر: الرسل جاؤوا لمحق ما ينل في الإيمان 35
- الوجه التاسع عشر: الإلحاد جحد بقضاء الله وقدره 36
- الوجه العشرون: حصر الملحدین العلوم في الحواس 37
- الوجه الحادي والعشرون: معاندة الملحدین لله ورسله 39
- الوجه الثاني والعشرون: أصلهم الباطل جرهم إلى إبطال الوحي والمعاد 41
- الوجه الثالث والعشرون: العلوم الحسية قطرة من بحر علوم الرسل 41
- الوجه الرابع والعشرون: زعمهم أن الرجوع إلى الماضي رجعية 43
- الوجه الخامس والعشرون: لا عاصم من الفوضوية والشهوات إلا بما جاءت به الرسل 45
- الوجه السادس والعشرون: أخبار الرسل الغيبية موجودة ثابتة 47
- الوجه السابع والعشرون: كفار اليهود والنصارى أعلم من الملحدین بالأمور الإلهية 50
- الوجه الثامن والعشرون: طرق العلوم اليقينية كثيرة 53
- الوجه التاسع والعشرون: آيات الرسل حسية شاهدها الأمم 55
- الوجه الثلاثون: الطبيعة لا شعور لها، فكيف يكون خالقها؟ 56
- الوجه الحادي والثلاثون: علوم الملاحدة عرضة للتغيير 57

- الوجه الثاني والثلاثون: إنكار ما جاءت به الرسل مكابرة 57
- الوجه الثالث والثلاثون: شهود العقول بمحاسن الشريعة 58
- الوجه الرابع والثلاثون: أصل بلاء الملحدين 61
- الوجه الخامس والثلاثون: حصر الملاحدة مداركهم في الحياة الدنيا 62
- الوجه السادس والثلاثون: قوة ارتباط أدلة الدين بمدلولاتها 65
- الوجه السابع والثلاثون: وجود الله أظهر الموجودات 68
- الوجه الثامن والثلاثون: إنكار وجود الله إساءة إلى المجتمع 71
- الوجه التاسع والثلاثون: بطلان دعوى المصادفة 76
- الوجه الأربعون: من الخيانة قطع علماء الطبيعة بحوثهم بالله 78
- الوجه الحادي والأربعون: شهادة الله والقرآن لنبينا محمد ﷺ 78
- الوجه الثاني والأربعون: الإلحاد مانع من الشكر والصبر 81
- الوجه الثالث والأربعون: التقدم العلمي مدمر في حال بعده عن الدين 82
- الوجه الرابع والأربعون: الماديون عاجزون عن حل مشاكل الحياة 83
- الوجه الخامس والأربعون: بطلان وصف إلحادهم بأنه تقدم ورقي 86
- الوجه السادس والأربعون: محال أن تهذب علوم المادة المحضنة النفوس 88
- الوجه السابع والأربعون: القرآن أكبر البراهين على صدق خاتم المرسلين 89
- الوجه الثامن والأربعون: كمال أخلاق النبي ﷺ وتأنيده بالمعجزات دليل على صدقه 91
- الوجه التاسع والأربعون: الإسلام دين الفطرة والحكمة 92
- الوجه الخمسون: شريعة النبي ﷺ أكبر دليل على أن ما جاء به هو الحق 93

- الوجه الحادي والخمسون: الموازنة بين سيرة المؤمنين وسيرة الملحدين 94
- الوجه الثاني والخمسون: نبوة النبي الأمين ﷺ بما سيكون من الملحدين 96
- الوجه الثالث والخمسون: علم البشر مهما بلغ كقطرة من بحر علم الله 97
- الوجه الرابع والخمسون: ما الذي يحمل الملاحدة على مناهجهم الباطلة؟ 99
- الوجه الخامس والخمسون: نسبة دقاع صنع الله إلى المصادفة العمياء من أكبر حماقات 102
- الوجه السادس والخمسون: نصر الله لرسله، وعقاب مخالفيهم دليل على صدقهم 104
- الوجه السابع والخمسون: الرد على شبهة الملحدين: لو كان الدين حقاً لما كان أتباعه بهذا الضعف والهوان! 108
- الوجه الثامن والخمسون: انحراف الخلق وانحلال أخلاقهم بسبب الإلحاد 110
- الوجه التاسع والخمسون: سعادة المجتمع لا تكون إلا بسنن الإسلام وأنظمتها ... 112
- الوجه الستون: العناد والكبر يؤديان للكفر 114
- الوجه الحادي والستون: صحة العقل في أن يدرك الحق، ويعمل به 115
- الوجه الثاني والستون: كل أنواع الباطل قد قال بها من سبق 116
- الوجه الثالث والستون: عقيدة الكمال لله مقررّة في الفطر والعقول 117
- الوجه الرابع والستون: كل دليل يبطل به الشرك هو برهان على بطلان الإلحاد 119
- الوجه الخامس والستون: البراهين على رسالة الرسل مبطلّة لأقوال الملحدين .. 120
- الوجه السادس والستون: البراهين على البعث هادمة لأقوال الملحدين 120
- الوجه السابع والستون: كمال الرسول محمد ﷺ دليل على صدقه 122
- الوجه الثامن والستون: حرص المحتلين على إفساد التعليم 123

- الوجه التاسع والستون: الإسلام يقيم الدين والدولة 125
- الوجه السبعون: من أكبر أسباب الإلحاد: الإعراض عن علوم الدين 125
- الوجه الحادي والسبعون: الملحدون يعارضون عقول العقلاء وعلوم الأنبياء 127
- الوجه الثاني والسبعون: أهل الإلحاد ليس لهم عقل ولا دين 129
- الوجه الثالث والسبعون: غرض الملحدين تنحية الدين عن المتعلمين 131
- الوجه الرابع والسبعون: الله أعظم من أن يجحد 133
- الوجه الخامس والسبعون: العقل مصدق للشرع 134
- الوجه السادس والسبعون: وجوب طاعة الرسول ﷺ لثبوت صدقه 139
- الوجه السابع والسبعون: جميع الأديان متفقة على إثبات ربوبية الله 140
- الوجه الثامن والسبعون: ضرب الله الأمثال لتقرير التوحيد والرسالة والمعاد 141
- الوجه التاسع والسبعون: الله يقول الحق، ويحكم بالعدل، ويهدي السبيل 143
- الوجه الثمانون: استحالة وجود إلهين 145
- الوجه الحادي والثمانون: آيات الله المشهودة وآياته المسموعة مبطلات لكل شرك والإلحاد
وجحود 145
- الوجه الثاني والثمانون: خروج الملحدين عن العقليات الصحيحة 147
- الوجه الثالث والثمانون: الملحدون جاهلون معاندون 149
- فهرس الموضوعات 153

